3 me Année, No. 106.

Lundi-15-7-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

السنة الثالثة « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ ربيع الثانى سنة ١٣٥٤ — ١٥ يوليو سنة ١٩٣٥ » العــــدد ١٠٦

فهرس العــــدد

الميت الذى لا يموت

٢ ــ الشيخ محمد عبده

بمناسبة ذكراه الثلاثين

تولدت حيوية الامام القوية من جبلّة أبيه الحرة فى « محلة نصر » ، وتكونت نفسيته الدينية من صوفية خاله النقية فى « كنيسة أورين » ، وتفتحت عقليته العلمية فى شمس جمال الدين المشرقة بالقاهرة ؛ فكان سر الوراثة يُجريه فى الاعتقاد على الاخلاص ، وفى العزم على المضاء ، وفى القول على الصراحة ، وفى العمل على الجرأة ، وفى الحياة على التمرد ؛ فالقلق المقدس الذى يشبه فى الحكماء ، الأرهاصَ فى الأنبياء ، كان لا يفتأ منذ الحداثة يساوره فى كل هم يحاوله ، وعمل يزاوله ، وموضع يستقر فيه ؛ وذلك القلق مبعثه فى المصلح صفاء النفس ولطف الحس وحدة الفطنة ، فهو وحده يدرك النقص فيروم الكمال ، ويلحظ الخطأ فيطلب الصواب ، ويسأم الركود فيبتغى التحول ؛ ولذلك كان الامام لا يُكره طبعه على حال ، ولا يلبس سمعه على رأى ، ولا يملك لسانه عن نقد ، ولا يكف عزمه عن تغيير ، ولا يخزل جهده عن إصلاح دخل المعهــــد الأحمدى فبرم بالتعلم لفساد الطريقة وسوء

الكتب ، فكان وَكْدُه طول عمره أن ينعش الدين من هذا الجمود ، ويخرج الأزهر من هذه الفوضى ، وينقذ الطلاب من هذا العنت ؛ وظهرت مقالاته فى (الأهرام) وهو لا يزال فى صدر الطلب تحمل دعوة هذا العقل المتجدد المتمرد إلى العلوم العقلية ، والمعارف العصرية ، والأدب المنتج ؛ ثم تولى رآسة المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية فثار على الأساليب الكتابية فى الدواوين ، والتقاليد الادارية فى الحكم ، والبدع الفاشية فى الدين ، والعادات المنكرة فى المجتمع ؛ وكانت مقالاته فى (الوقائع المصرية) دستوراً للغة ، ونظاماً للكتابة ، ومنهاجاً للفضيلة ، قام على نفاذها سلطان من شجاعته وقوة من نفوذه

ثم شايع العرابيين فى النهضة المصرية الأولى مشايعة البصير الحازم ، فأعقبته النفى إلى سورية ؛ وهناك دله ذلك الشعور النبوى فيه إلى ماجره سوء سياسة السلطان ، من انفراج الحال بين الأديان ، وجفاف الثرى بين الاخوان ، فوضع دستوراً لاصلاح التعليم الدينى قدمه إلى شيخ الاسلام ، ومشروعاً لاصلاح القطر السورى قدمه إلى والى بيروت ، ولو أخذت بهما الحكومة العثمانية لكان شأنها غير ذلك الشأن ، وعاقبتها غير هذه العاقبة

ثم اتسع أفق تفكيره ، وانفسح مدى نظره ، فراعه حال المسلمين من قناعتهم بالدون ، واستنامتهم إلى الهُون ، وقعودهم عن مسايرة التمدن ، فوافى الافغانى إلى باريس ، ودعا فى (العروة الوثقى) أشتات الأمة إلى الوحدة ، وأموات الجهالة إلى البعث ، وأسرى العبودية إلى التحرر

ثم ولوه بعد العفو عنه القضاء ، فلاءم بين الأحكام المدنية والدينية ، وساوى فى النظام بين المحاكم الأهلية والشرعية ، وارتجل لهذه من الاصلاح ما حقق من وجودها النفع ، وجدد فى قضاتها الثقة ، وضمن لقضائها التنفيذ

ثم عاد فحصر إصلاحه الداخلى والخارجى ، الدينى والمدنى ، فى إصلاح الأزهر ، لأنه منشأ الدعاة والهداة والقضاة والمعلمين فى مصر وغير مصر ، فاذا قلبه على الوضع الذى يريد فقد وضع المكواة على أصل العلة ، واختصر الطريق إلى بلوغ الغاية ؛ ولكن أبا لهب وأشياعه فى الجامع وفى القصر أرادوا وأسفاه أن يطفئوا بأفواههم نور الله ، فأطفأوا بكيدهم سراج حياته ! !

* * *

ذلك سر الوراثة الفسلجية عن أبيه القروى الفقير الباسل ؛ أما سر الوراثة الروحية عن خاله التقى العارف ، فرجوعه إلى مشارع الدين الصافية ، وعقائد القرآن الأولى . قال ذات يوم لخاله : ما طريقتكم ؟ قال : الاسلام ؛ قال : وما وِرْدكم ؟ قال : القرآن . فلم يتَّبع منذ يومئذ غير سبيل المؤمنين ومنهاج الأئمة : أيقظ همه للاسلام فقرب عقائده من الأفهام ، وقطع عنه ألسنة المبشرين والمستعمرين بالأدلة النواهض والحجج الملزمة ؛ وجعل عزمه للقرآن ففاز منه برياض مونقة ، وأعلام بينة : فبراهين قضاياه من قواعده ، وبينات دعاواه من شواهده ، ومضامين عبقرياته من هديه ، وأفانين بلاغاته من وحيه ، وعناوين مقالاته من آيه ؛ فكأنه رسول الرسول ظهر فى عصر العلم الشاك والمدنية الملحدة ليكشف عما غيب الله من نور الكتاب وسره !

أما سر الوراثة العقلية عن أستاذه الحكيم الثائر ، فذلك النفوذ البعيد فى علوم الفلسفة ، والبصر الشديد بضروب المعرفة ، والالمام المحيط بثقافة العصر ، والعلم الواسع بقواعد العمران وتاريخ الأديان وطبائع الشعوب وأخبار الأمم ! وسر النتاج فى هذه الوراثات الثلاث : طبع ذكى ، ونبوغ فطرى ، ونفحة من روح الله ليعيد كلته على لسانه ، ويبعث شريعته عن قلبه

* * *

كان الامام محمد عبقرية ثائرة ناقدة لا تعرف القيود ولا الحدود ولا السطحية ، ولكنها انحصرت بحكم الظروف فى الاصلاح الدينى ، فوقفت بين الدين الذى تأخر ، والعلم الذى تقدم ، موقف ابن رشد وابن سينا من قبل : تحاول التأليف بين القلب والعقل ، والتوفيق بين الرأى والنقل ، فذهب أكثر جهده باطلاً بين الجامدين الذين يرون فى تجديده الدين بالعلم بدعة ، وبين المسرفين الذين يرون فى تقييده العلم بالدين رجعية ! ولو أنه عالج الاصلاح الاجتماعى من طريق العلم ، أو السياسى من طريق الحكم ، لدفع الأمة إلى الأمام قرناً على الأقل

وبعد ، فان فى ميدان الأزهر الجديد موضع التمثال العتيد لمجدد الاسلام ومصلح الأزهر ! ولو كنا اقترحنا هذا الاقتراح فى عهد (الفلان) وأشباهه لاستغفرنا الجهل سبعين مرة ، ولكننا نقترحه اليوم فى عهد المراغى تلميذ الامام وخليفته ! فهل يتحقق الظن ويصدق الأمل ؟

احمد حسن الزيات

فلسفة الطائشة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

... وهذا مجلس من مجالس الطائشة مع صاحبها، مما نسقّطه من حديثها؛ فقد كان يكتب عنها ما تُصيب فيه وما تخطىء، كما يكتب أهلُ السياسة بعضُهم عن بعض إذا فاوضَ الحليفُ حليفه أو ناكرَ الخصمُ خصمَه؛ فإن كلامَ الحبيبِ والسياسيِّ الداهيةِ ليس كلامَ المتكلّم وحده، بل فيه نطقُ الدولة .... وفيه الزمنُ يُقبِل أو يُدبِر

وصاحبُ الطائشة كان يراها امرأةً سياسية كهذه الدُّول التي تُرْغِم صديقاً على الصداقة لأنه في طريقها أو طريق حوادثها. وكان يسميها «جيشَ احتلال»، إذ حطت في أيامه واحتلتها فتبوّأتْ منها ما شاءت على رغمه، واستباحت ما أرادت مما كان يحميه أو يمنعه. وقد كان في مدافعته حبها واستمساكه بصداقتها كالذي رأى ظلّ شيء على الأرض فيحاول غسله أو كنسه أو تغطيته... فهذا ليس مما يُغسل بالماء ولا يُكنس بالمكنسة ولا يغطى بالأغطية، إنما إزالتُه في إزالة الشبح الذي هو يُلقيه أو إطفاء النور الذي هو يُثبته

في كل شيء على هذه الأرض سُخرية، والسخريةُ من الحسن الفاتن الذي تقدسه، تأتي من اشتهاء هذا الحسن؛ فذاك إسقاطُه سقوطاً مقدّساً... أو ذاك تقديسه إلى أن يسقط، أو هو تجعلُ تقديسه باباً من الحيلة في إسقاطه. لا بد من سُفلٍ مع العلو يكون أحدهما كالسخرية من الآخر؛ فاذا قال رجل لامرأةٍ قد فتنته أو وقعت من نفسه: «أحبك» أو قالتها المرأةُ لرجل وقع من نفسها أو استهواها، ففي هذه الكلمة الناعمةِ اللطيفة كلُّ معاني الوقاحة الجنسية، وكل السخرية بالمحبوب سخريةً بإجلالٍ عظيم... وهي كلمةُ شاعرٍ في تقديس الجمال والاعجاب به، غير أنها هي بعينها كلمةُ الجزّار الذي يرى الخروف في جماله اللحميّ الدهنيّ، فيقول: «سَمين ....!»

لهذا يمنع الدينُ خلوةَ الرجل بالمرأة، ويُحرِّم إظهارَ الفتنةِ من الجنس للجنس، ويَفصل بمعاني الحجاب بين السالب والموجب، ثم يضع لأعين المؤمنين والمؤمنات حجاباً آخر من الأمر بغضّ البصر، إذ لا يكفي في ذلك حجابٌ واحد، فان الطبيعة الجنسية تنظر بالداخل والخارج معاً. ثم يطرد عن المرأة كلمةَ الحب إلا أن تكون من زوجها وعن الرجل إلا أن تكون من زوجته، إذ هي كلمةُ حيلةٍ في الطبيعة أكثرُ مما هي كلمة صدقٍ في الاجتماع، ولا يؤكد في الدين صدقَها الاجتماعيَّ إلا العقدُ والشهودُ لربط الحقوق بها، وجعلها في حياطة القوة الاجتماعية التشريعية، وإقرارها في موضعها من النظام الانساني؛ فليس ما يمنع أن يكون العاشقُ من معاني الزوج، أما أن يكون من معنًى آخر أو يكونَ بلا معنًى فلا؛ وكل ذلك لصيانة المرأة ما دامت هي وحدها التي تلد، وما دامت لا تلد للبيع ....

وفلسفةُ هذه الطائشة فلسفةُ امرأةٍ ذكية مطلعةٍ محيطة مفكرة، تُبصر بالكتب والعقل والحوادث جميعاً، وقد أصبحت بعد سَقْطةِ حبها ترى الصوابَ في شكلين لا شكل واحد؛ فتراه كما هو في نفسه، وكما هو في أغلاطها

وقد أسقطنا في رواية مجلسها ما كان من مُطارَحات العاشقة، واقتصرنا على ما هو كالاملاء من الأستاذة ....

***

قال صاحب الطائشة: ذكرتُ لها «قاسم أمين» وقلت: إنها خير تلاميذه .... حتى لكأنها تجربة ثلاثين سنة لآرائه في تحرير المرأة. فقالت: إنما كان قاسم تلميذَ المرأة الأوربية، وهذه المرأة بأعيننا فما حاجتنا نحن الى تلميذها القديم؟

قالت: وأبلغُ من يرد على قاسم اليومَ هي أستاذته التي ثبتتْ بها أطوارُ الحياة بعده، فقد أثبت قاسم — غفر الله له — أنه انحصر في عهدٍ بعينه ولم يُتبِع الأيامَ نظره، ولم يستقرئ أطوارَ المدنية؛ فلم يُقدِّر أن هذا الزمن المتمدِّنَ سيتقدم في رذائله بحكم الطبيعة أسرع وأقوى مما يتقدم في فضائله، وأن العلم لا يستطيع إلا أن يخدم الجهتين بقوة واحدة فأقواها بالطبيعة وأقواها بالعلم، وكأن الرجل كان يظن أنه ليس تحت الأرض زلازلُ ولا تحت الحياة مثلُها

مزّقَ البرقع وقال: «إنه مما يزيد في الفتنة، وإن المرأة لو كانت مكشوفةَ الوجه لكان في مجموع خَلْقها — على الغالب —

ما ردَّ البصر عنها » فقد زال البرقع ، ولكن هل قدّر قاسم أن طبيعة المرأة منتصرةٌ دائماً فى الميدان الجنسيّ بالبرقع وبغير البرقع ، وأنها تخترع لكلِّ معركةٍ أسلحتها ، وأنها إن كشفت برقع الخزّ فستضع فى مكانه برقعَ الأبيض والأحمر . . . ؟

وزعم أن « النقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على إظهار ماتظهر وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة ، لأنهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد فيقول : فلانة ، أو بنت فلان ، أو زوج فلان كانت تفعل كذا . فهى تأتى كل ما تشتهيه من ذلك تحت حماية البرقع والنقاب » فقد زال البرقع والنقاب ، ولكن هل قدّر قاسم أن المرأة السافرةَ ستلجأ إلى حماية أخرى فتجعل ثيابها تعبيراً دقيقاً عن أعضائها ، وبدلاً من أن تلبس جسمها ثوباً يكسوه تُلبسُه الثوبَ الذى يكسوه ويزيّنه ويظهره ويحرّكه فى وقت معاً ، حتى ليكاد الثوب يقول للناظر : هذا الموضع اسمهُ . . وهذا الموضع اسمه .. وانظر هنا وانظر هاهنا .. ما زادت المدنية على أن فكّكت المرأةَ الطيّبة ثم ركّبتها فى هذه الهندسة الفاحشة !

وأراد قاسم أن يعلمنا الحب لنرتبطَ به الزوجَ معنا ، فلم يزد على أن جرّأنا على الحب الذى فرّ به الزوجُ منا ، وقد نسى أن المرأة التى تخالط الرجلَ ليُعجبها وتعجبَه فيصيرا زوجين — إنما تخالط فى هذا الرجل غرائزَه قبل إنسانيته ، فتكون طبيعته وطبيعتها هى محل المخالطة قبل شخصيهما ، أو تحت ستار شخصيهما ؛ وهو رجل وهى امرأة ، وبينهما مصارعةُ الدم ... وكثيراً ما تكون السكينةُ هى المذبوحة . وقد انتهينا إلى دهرٍ يُصْنَعُ حُبُّه ومجالسُ أحبابه فى « هوليود » وغيرها من مُدُن السيما ، فان رأى الشاب على الفتاة مظهرَ العفّةِ والوقار قال : بلادةٌ فى الدم ، وبلاهة فى العقل ، وثقَل أىّ ثقل . وإن رأى غير ذلك قال : فجورٌ وطيش واستهتارٌ أىُّ استهتار . فأين تستقر المرأة ولا مكان لها بين الضدَّين ؟

أخطأ قاسم فى اغفال عمل الزمن من حسابه ، وهاجمَ الدين بالعُرف ؛ وكان من أفحش غلطه ظنّه العرفَ مقصوراً على زمنه ، وكأنه لم يدر أن الفرق بين الدين وبين العُرف هو أن هذا الأخير دائمُ الاضطراب ، فهو دائم التغيُّر ، فهو لا يصلح أبداً قاعدةً للفضيلة . وهانحن أولاء قد انتهينا إلى زمن العُرْى ، وأصبحنا نجد لفيفاً من الأوربيين المتعلمين ، رجالهم ونسائهم ، إذا رأوا فى جزيرتهم أو محلّتهم أو ناديهم رجلاً يلبس فى حِقْوَيه تُبَّاناً قصيراً كأنه وَرَقُ الشجر على موضعه ذاك من آدمَ وحواء ، إذا رأوا هذا المتعفّفَ بخرقَة . . . . أنكروا عليه وتساءلوا بينهم . مَن ؟ مَن هذا الراهب . . . . ؟

ونسى قاسم — غفر اللهُ له — أن للثياب أخلاقاً تتغير بتغيرها فالتى تُفرغ الثوبَ على أعضائها إفراغَ الهندسة ، وتُلبس وجهها ألوان التصوير — لا تفعلُ ذلك إلا وهى قد تغير فهمُها للفضائل ، فتغيرتْ بذلك فضائلُها ، وتحولتْ من آيات دينية إلى آيات شعرية . وروحُ المسجد غير روح الحانة ، وهذه غيرُ روح المرقص ؛ وهذه غير روح المخدع ، ولكلّ حالةٍ تلبسُ المرأة لِبْساً تُخفى منها وتُبدى . وتحريكُ البيئة لتتقلب ، هو بعينه تحريكُ النفس لتتغير صفاتها ، وأين أخلاقُ الثياب المصرية فى امرأة اليوم ، من تلك الأخلاق التى كانت لها من الحجاب ؟ تبدّلتْ مشاعر الطاعة والصبر والاستقرار والعناية بالنسل والتفرُّغ لاسعاد أهلها وذويها — مشاعرَ أخرى أوّلها كراهيةُ الدار والطاعة والنسل ، وحَسبُك من شرّ هذا أوّله وأخفُّه !

كان قاسم كالمخدوع المغترِّ بآرائه ، وكان مصلحاً فيه روحُ القاضى ، والقاضى بحكم عمله مقلّدٌ مُتّبع ، أليس عليه أن يسند رأيه دائماً إلى نَصٍّ لم يكن له فيه شأنٌ ولا عمل ؟ من ثم كثرت أغلاطُ الرجل حتى جعل الفرقَ بين فساد الجاهلة وفساد المتعلّمة أن الأولى « لا تكلّف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذى تريد أن تقدّم له أفضلَ شىء لديها وهو نفسها ؛ وعلى خلاف ذلك يكون النساء المتعلماتُ ، إذا جرى القدَرُ عليهن بأمر مما لا يحلّ لهن لم يكن ذلك إلا بعد محبةٍ شديدة يسبقها علمٌ تامٌّ بأحوال المحبوب (....) وشمائله وصفاته ، فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم فى كل وقت (!!!!) وهى تحاذر أن تضع ثقتها فى شخص لا يكون أهلاً لها ، ولا تُسلم نفسها إلا بعد مناضلة يختلف زمنها وقوةُ الدفاع فيها حسب الأمزجة (؟؟؟؟) وهى فى كل حال تستتر بظاهر من التعفُّف (؟؟؟؟) . . . »[1]

(١) ص ٥١ من كتاب « تحرير المرأة » ، وهو كلام قاسم بنصه ، وأكثر ما فى هذا الكتاب هو فى رأينا خلط وخبط

أليس هذا كلامَ قاضٍ من القضاةِ الدَّنيِّين المتفلسفين على مذهب (لمبروزو) يقول لاحدى الفاجرتين : أيتها الجاهلةُ الحمقاء كيف لم تَستَحاشي ولم تَستترى فلا يكونَ للقانون عليك سبيل ؟

وحتى فى هذا قد أثبت قاسم أنه لايعرفُ الأرنبَ وأذنيها[1]

وإلا فتى كان فى الحب اختيار ، ومتى كانت الاختيارُ يقع فيما يجرى به القَدَر ، ومتى كان نظر العاشقة إلى الرجال نظراً سيكولوجياً كنظر المعلمة إلى صبيانها . . . . فتدرس الصفات والشمائل فى مئات وألوف ممن تراهم فى كل وقت لتُصفِّيها كلها فى واحد تختاره من بينهم ؟ هذا مضحك !

إليك خبراً واحداً مما تنشره الصحفُ فى هـذه الأيام :

كفرار بنت فلان باشا خرِّيجة مدرسة كذا مع سائق سيارتها ، ففسِّر لى أنت كلام قاسم ، وأفهِمْنى كيف تكون اثنتان واثنان خمسةً وعشرين ؟ وكيف يكون فرار متعلِّمة أصيلة مع سائق سيارة هو محاذرةَ وضع الثقةِ فيمن لا يكون أهلاً لها ؟

لقد أغفل قاسم حساب الزمن فى هـذا أيضاً ، فكثير من المنكرات والآثام قد انحل منها المعنى الدينيُّ وثبت فى مكانه معنىً اجتماعيٌّ مقررٌ ، فاصبحت المتعلمة لاتتخوَّف من ذلك على نفسها شيئاً ، بل هى تُقارِفُهُ وتستأثر به دون الجاهلة ، وتلبس له (السواريه) ، وتقدِّم فيـه للرجال المهذَّبين مرةً ذراعها ، ومرة خصرها ...

أقرأتَ (شهر زاد) ؟ إن فيها سطراً يجعل كتابَ قاسم كلَّه ورقاً أبيض مغسولاً ليس فيه شيءٌ يُقرأ :

قالت شهر زاد المتعلِّمةُ المتفلسفة ، البيضاءُ البضَّة ، الرشيقةُ الجميلة ؛ للعبد الأسـود الفظيع الدميم الذى تهواه : « ينبغى أن تكون أسـودَ اللون ؛ وضيعَ الأصل ؛ قبيحَ الصورة ، تلك صفاتُك الخالدَة التى أحبُّها .... »[2]

فهذا كلامُ الطبيعة نفسِها لا كلام التأليف والتلفيق والتزوير على الطبيعة

* * *

قال صاحب الطائشة :

فقلتُ لها : فاذا كان قاسم لا يرضيك ، وكان الرجل مصلحاً دخلته روح القاضى ، فخلَط رأياً صالحاً وآخرَ سيِّئاً ، فلعل « مصطفى كمال » كمثلك من رجل فى تحرير المرأة تحريراً مزَّق الحجاب والـ ... ؟

قالت : إن مصطفى كمال هـذا رجلٌ ثائرٌ ، يسوق بين يديه الخطأ والصوابَ بعصاً واحدة ، ولا يمكن فى طبيعة الثورة إلا هـذا ، ولا يبرحُ ثائراً حتى يَتِمّ انسلاخُ أمتـه . وله عقلٌ عسكريٌّ كان يمكرُ به مَكرَ الألمان حين أكرهَهم الحلفاءُ على تحويل مصانع (كروب) فحوَّلوها تحويلاً يردُّها بأيسر التغيير إلى صنع المدافع والمهلكات . وليس الرجل مصلحاً ألبتـة ، بل هو قائدٌ زهَّاه النصرُ الذى اتفق له ، فخرج من تلك الحرب الصغيرة وعلى شفتيه كلمة : « أريد . . . » وجعل بعـد ذلك إذا غلِطَ غلطةً أرادها منتصرة ، فيفرضها قانوناً على المساكين الذين يستطيع أن يفرض عليهم وهم اليوم لا يملأون قبضةَ دولته ، فيقهرهم عليها ولا يناظرهم فيها ، ويأخذ كيف شاء ، ويَدَعُهم كيف أحب ؛ وبكلمة واحـدة : هو مؤلِّف الرواية والقانونُ نفسُه أحدُ الممثِّلين ...

وحِقْدُه على الدين وأهلِ الدين هو الدليلُ على أنه ثائرٌ لامصلح ؛ فان أخصَّ أخلاق الثورة حِقْد الثائرين ، وهذا الحقد فى قوة حربٍ وحدها ، فلا يكون إلا مادةً للأفعال الكثيرة المذمومة . والرجل يحتذى أوروبا ويعمل على أعمال الأوربيين فى خيرها وشرِّها ، ويجعل رذائلَهم من فضائلهم على رغم أنفهم يتبرَّأون هم منها ويُلحِقُها هو بقومه ، فكأنه يَستَنفُ الآراءَ ويأخذها أخذاً عسكرياً ، ليس فى الأمر الا قولة أريد . فيكون ما يريد . هو لم يحكم على شبرٍ من أوروبا يجعله تركياً ، ولكنه جعل رذائلَ أوروبا تتجنَّس بالجنسية التركية ...

وتالله إنه لأيَسرُ عليه أن يجيء بملائكةٍ أو شياطينٍ من المرَدَة ، ينفخون أرض تركيا فيُمطُّونها مطاً فيجعلونها قارّةً من أن يُكرِه أوروبا على اعتبار قومه أوربيِّين بلبس قبعةٍ وهَدمِ مسجد . إنه لا يزال فى أول التاريخ ، وهذا الشعبُ الذى انتصر به لم تَلِدْه مبادئُه ولا أنشأه هَدْمُ المساجد وشَنْقُ العلماء ،

---

(١) يقول العرب : « فلان يعرف الأرنب وأذنيها » أى يعرف الشيء بالعلامة التى تثبته ولا تتخلف

(٢) ص ١٠٦ من « شهر زاد » للكاتب الدقيق الأستاذ توفيق الحكيم . وقد كتبنا نحن فى هذا المعنى وكشفنا عن سره فى كتاب « أوراق الورد » ص ٥١ — ٥٢ وفى غيره من كتبنا

بل هو هو الذي ولدته تلك الأمهات ، وأخرجه أولئك الآباء ، وما كان يُعوِزُه إلا القائد الحازم المصمّم ، فلما ظفر بقائده جاء بالمعجزة ؛ فاذا فُتِنَ القائد بنفسه وأبى إلا أن يتحوّل نبياً فهذا شيءٌ آخر له اسمٌ آخر

ولنفرض « الأثير » كما يقول العلماء ، لنستطيع أن نجعل مسألتنا هذه علمية ، وأن نبحثها بحثاً علمياً ، فليكن مصطفى كمال هو اللورد كتشنر في انجلترا ، فيكسب اللورد كتشنر تلك الحرب العظمى لاحرب الدوَيلة الصغيرة ، وينتصر على البراكين من الجيوش لا على مثل براميل النبيذ ... ثم يتميزُ الرجلُ بدالّته على قومه ويدخُله الغرور ، فيتصنع لهم مرة ويتزين لهم مرة ، ثم يأتيهم بالآبدة فيُسفّه دينَهم ، ويريدهم على تعطيل شعائرهم وهدم كنائسهم لأن هذا هو الاصلاح في رأيه . أفَتُرَى الانجليزَ حينئذ يضمون اليه ويلتفون حوله ويقولون : قائدنا في الحرب ، ومصلحُنا في السِّلم ، وقد انتصرنا به على الناس فننتصر به على الله ، وظفرنا معه بيوم من التاريخ فنظافر معه بالتاريخ كله . . . ؟ أم تحسب كتشنر كان يجسر على هذا وهو كتشنر لم يتغير عقله ؟

إنه والله ما يَتدافعُ اثنان أن هَدْمَ كنيسة واحدة لايكون إلا هدم كتشنر وتاريخ كتشنر ، ولكن العجزَ مَهدٌ من تلقاء نفسه ، والأرض المنخسفةُ هي التي يستنقعُ فيها الماء فله فيها اسمٌ ورسم ؛ أما الجبلُ الصخريُّ الأشمّ ، فاذا صُبَّ هذا الماء عليه أرسله من كلّ جوانبه ، وأفاضه إلى أسفل . . . ! (١)

***

قال صاحب الطائشة : فأقول لها : إذا كان هذا رأيك للنساء فكيف لاترين مثل هذا لنفسك ؟

فتمعضت لهذه الكلمة ولجلجت قليلاً ثم قالت : أنت سلبتني الرأى لنفسي ، ووضعتني في الحقيقة التي لا تتقيد بقانون الخير والشر

قلت : فاذا كانت كل امرأة تغلط لنفسها في الرأى وتنصح بالرأى الصائب غيرها ، فيوشكُ ألا يبقى في نساء الأرض فضيلة ولا يعود في المدرسة كلها عاقلٌ إلا الكتاب

فتضاحكت وقالت : لهذا يشتدّ ديننا الاسلاميّ مع المرأة ، فهو يخلق طبائع المقاومة في المرأة ، ويخلقها فيما حولها ، حتى ليخيَّل إليها أن السماء عيونٌ تراها ، وأن الأرض عقولٌ تحصي عليها . وهل أعجبُ من أن هذا الدين يقضي قضاءً مبرماً أن تكون ثياب المرأة أسلوب دفاع لا أسلوب اغراء ، وأن يضعها من النفوس موضعاً يكون فيه حديثها بينها وبين نفسها كالحديث في الراديو له دويّ في الدنيا ، فيقيم عليها الحجاب وغَيرة الرجل وشرف الأهل ، ويؤاخذها بروح طبيعتها ، فيجعل الهفوة منها كأنها جنينٌ يكبَرُ ولايزال يكبَرُ حتى يكون عارَ ماضيها وخزْيَ مستقبلها

هذه كلها حُجُبٌ مضروبة لاحجابٌ واحد ، وهي كلها لخلق طبائع المقاومة ، ولتيسير المقاومة ، ومتى جاء العلم مع هذه لم يكن أبداً إطلاقاً ، ولم يكن أبداً إلا الحجابَ الأخير كالسور حول القلعة . ولكن قبح الله المدنية وفنها ؛ انها أطلقت المرأة حرّة ثم حاطتها بما يجعل حريتها هي الحرية في اختيار أثقل قيودها لاغير . أنت مُحمَّلٌ بالذهب ، وأنت حرٌّ ، ولكن بين اللصوص ، كأنك في هذا لست حراً إلا في اختيار من يجني عليك . . . . !

لم تعد المرأة العصرية انتصارَ الأمومة ، ولا انتصار الخلُق الفاضل ، ولا انتصار التعزية في هموم الحياة ؛ ولكن انتصار الفن ، وانتصار اللهو ، وانتصار الخلاعة

قال صاحب الطائشة : فضحكت وقلت : وانتصاري . . . ! ؟

طبق الأصل (طنطا) مصطفى صادق الرافعي

« تنبيه »

ليست الطائشة كل النساء ، ولا كل المتعلمات ، ونحن إنما نروى قصة هي في الدنيا ليس فيها كلمة من المريخ ولا من زحل ؛ فأما الصالح فيرى ويفهم ، ولعله يصون بها نفسه ؛ وأما الفاسد فيرى ويعتبر ، ولعله يردّ بها نفسه . ومذهبنا دائماً وجوب كشف الحقيقة ، وإذا أردت أن تأخذ الصواب فخذه عمن أخطأ

(١) سنفرد مقالا خاصاً لهذا الالحاد التركي الذبابي . . . . فقد عثرنا في النسخة الخطية التي عندنا من (كليلة ودمنة) على فصل بديع عنوانه : « كفر الذبابة » ، وسنقدمه لقرائنا

حول المسجد

للأستاذ أحمد أمين

ساقني حسن الحظ إلى الحديث مع سيدة انجليزية فاضلة ، وكان ذهني مستغرقاً في برنامج « الأخلاق والتربية الوطنية للمدارس الثانوية » والمتحدثون — عادة — يلونون حديثهم — ولو من غير شعور — بما يشغل أذهانهم ويستغرق أفكارهم — ومهما بعُد المتحدث عن الموضوع الذي يستولى عليه فسرعان ما يعود إليه ، وينغمس فيه

لقد بدأنا الحديث في الجو وانتقلنا إلى غيره ، وإذا بنا نتكلم في « التربية والتعليم وشؤونهما » وإذا بي أسأل السيدة :

— ما برنامج الأخلاق والتربية الوطنية للمدارس الثانوية في انجلترا ؟

— ليس لها في المدارس برنامج معين ولا دروس خاصة ، ولكن تلقى فيهما محاضرات في مناسبات ، وأهم ما يقوم بهذه المهمة « الكنيسة » فهي تنظم دروساً للشبان والشواب في هذا الموضوع ، ويقوم بها رجالها ، فيكفوننا بذلك مؤونة الدروس في المدارس ؛ وإلقاؤها في الكنائس يجعل لها معنى أجل ، واحتراماً أوفر ، وطعماً أحلى

* * *

انتقل ذهني في سرعة البرق من الكنيسة عندهم إلى المسجد عندنا ، وساءلت نفسي :

ما الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها المسجد للأمم الاسلامية ؟

إني أفهم أن لمسجد الحي وظيفة اجتماعية هامة بجانب وظيفته الدينية ، هي الاشراف على تجلية الروح وتهذيب النفس بتنظيم المحاضرات في الموضوعات التي تمس العصر ، والمشاكل التي تعرض في كل زمن ، كما أن من وظيفته الاشراف على حالة الحي الاجتماعية ، وما يصاب به من بؤس وفقر وانغماس في المخدرات ونحو ذلك ؛ ثم تنظيم الاحسان والقيام بالخدمة العامة بين الأغنياء والفقراء ، وإسداء النصائح للأسر فيما يعرض لهم من متاعب وصعاب

إني أفهم من مسجد الحي أن يكون كمستشفى الحي ، غير أن المستشفى يداوي الأمراض الجسمية ، والمسجد يداوي الأمراض الروحية والاجتماعية

إني أفهم أن يكون إمام المسجد رئيس المستشفى يعرف مرضى الحي ، ويعرف علاجهم ، ويكون صلة تآلف وتعارف بين أهل الحي ، يأخذ من غنيهم لفقيرهم ، ومن صحيحهم لمريضهم ، ويقضي على المنازعات والخصومات ما استطاع ، ويثقف الجهلاء ، ويتخذ من المثقفين من أهل الحي أعواناً وأنصاراً ، يخطبون ويعظون ، ويعلمون ويثقفون — وإذ ذاك يشعر أهل الحي بأن المسجد ضرورة من ضرورات الحياة ، يقوم لهم بما تقوم به المدرسة وبما تقوم به المحكمة ، وبما تقوم به جمعيات الاحسان ، وبما هو فوق هذا وذاك

بل لم لا يكون المسجد معهداً للمرأة كما يجب أن يكون معهداً للرجل ، فيخصص مسجد كل حي وقتاً لنساء الحي تعلم فيه المرأة واجباتها الدينية والاجتماعية ، وتفقه فيه في دينها ودنياها ، وترشد فيه إلى طرق إسعاد البيت ، وتثار همتها إلى العطف والاحسان وتنظيمهما

فالمرأة الآن محرومة من غذائها الروحي والديني : لأنها بعيدة عن المسجد ، حرمت منه من غير حق ، وهو سلوتها في الأزمات ، وهو منهل عواطفها وغذاء روحها — لقد حرمت المرأة من المسجد ، فحرم أبناؤها وبناتها من العاطفة الدينية ، لأن الأم — غالباً — هي مصدر هذا الايحاء ، وإذا انحرفت مرة فلم تجد المسجد يهديها ويعزيها ، جمحت وغوت ؛ فهي الآن بين بيت وملهى ولا مسجد بينهما يذهب ملل البيت ويكسر من حدة الملاهي

هذا هو المسجد كما أتصوره ، وكما ينبغي أن يكون — قوي الأثر في النواحي الروحية والاجتماعية والتعليمية ، في الرجل والمرأة ، قلوب الحي معلقة به ، يغارون عليه ، ويعملون على ترقيته من حيث نظامه ونظافته وإمامه وخطباؤه ، ويرون أنه لهم وهم له ، وأن منارته ينبعث منها الاصلاح في جميع نواحيه ؛ متعلمو الحي جنوده في نشر الثقافة ، وأغنياؤه جنوده في محاربة الفقر ، ونساؤه دعاة أبنائهم وبناتهم إليه

هذا هو الوضع الصحيح للمسجد ، فأين مسجدنا منا ، وأين نحن من المسجد ؟

لقد اعتزل الناسَ واعتزله الناسُ ، ولم يشعر شعوراً قوياً بوجودهم ، ولم يشعروا شعوراً قوياً بوجوده

نظرت دار الآثار إلى بنائه فعدته « آثاراً » ونظر الناس إلى نظامه فعدوه كذلك « آثاراً » فليس يؤمه — مع الأسف — إلا الطبقة الفقيرة البائسة ، أو الموظف الذي أحيل إلى المعاش ؛

أو من تقدمت به السن من عامة الناس . أما الشباب المثقفون ومن أنعم الله عليهم بشيء من رغد العيش فلا يفكرون في المسجد ولا تحدثهم أنفسهم بزيارته ، وإن دخلوا لا يعرفوا كيف تؤدّى شعائره إلا القليل النادر ، كأن السينما والمساجد اقتسما الناس ، فخص المسجد بالشيوخ والعجائز والفقراء ، وخص السينما بالفتيان والفتيات والأغنياء ، وهي حال لا تشعر بأمل ، ولا تبشر بخير

ووزارة الأوقاف كذلك عدّت المساجد « آثاراً » ، فهي تسير في تعيين أئمتها وخطبائها وفي مراقبتها سير القرون الخالية كأن الزمن لا يسير

والأئمة والخطباء يعاملونها معاملة « الآثار » فهم يقرأون غالباً الخطب التي ألفت في القرون الماضية ، فلا تحرك نفساً ولا تحيي همة — كل ما فيها « اتقوا الله » إجمالا من غير تفصيل . أما ما يحدث بيننا من أحداث ، وأما ما نشعر به من مصائب وما يتتابعنا من كوارث ، فلا دخل لهم فيه ، لأن دواوين القدماء لم تنص عليه

ورحبت السياسة بهذا النظر الأثري إلى المساجد فاطمأنت إليه لأنه يخدمها ، وإلا فما بالنا نرى المسجد بعيداً عن الناس هذا البعد ، هل لو أراد الخطباء غير الامام أن يخطبوا في المسجد في إصلاح الحالة الاجتماعية أجيب طلبهم ؟ وهل لو نظمت محاضرات ثقافية في المسجد للشبان مرة والشواب مرة في الأخلاق والتربية الوطنية تسمح وزارة الأوقاف بذلك ؟ أكبر الظن أن لا

الحق أن للناس بعض العذر في الانصراف عن المساجد ، فلو عرف الخطباء كيف يكلمون الناس وعرف رجال الدين كيف يصلون إلى قلوبهم ، وشعر الناس أنهم يجدون في المسجد متعة روحية وغذاء دينياً واجتماعياً ، لتغير الحال وازدحم المسجد بالناس من جميع الطبقات

وقد كان المسجد في الاسلام يقوم بهذه النواحي التي ذكرنا ، فالخلفاء ونوابهم كانوا يخطبون في المشاكل الحاضرة — وكانوا يخطبون كلما حزبهم أمر أو عرض لهم مهم ، وكان للمسجد مدرسة للعلماء والمتعلمين والشعراء والتأديبين ، وكان المسجد مكتبة للواردين والمترددين ، وكان المسجد مجمع الناس في الأعياد والمواسم ، وكان المسجد مكتب الصغار ومدرسة الكبار ، ولو سار في طريقه وتأقلم مع الزمن لكان يؤدي كل الخدم الاجتماعية التي أشرنا إليها من قبل ولكن « خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا إلا من تاب »

هل للأزهر ووزارة الأوقاف أن يتعاونا على إصلاح المسجد ويضعا البرامج له على أنه مرفق اجتماعي كما هو مركز ديني ؟؟ . . إن إصلاحه على هذا الوضع تقوية للدين ، وإصلاح للناس ؟

في القطار الى (رأس البر) — **أحمد أمين**

بين الأسطورة والتاريخ

هل احرق فاتح الاندلس سفنه ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتخذ شخصية طارق بن زياد فاتح الأندلس مكانها بين عظماء الفاتحين ، لا في التاريخ الاسلامي وحده ، ولكن في تاريخ الأمم القديمة كلها ؛ وتعتبر موقعة شذونه أو « مدينا سدونيا » من أعظم الوقائع الحاسمة في تاريخ الانسانية ، ففيها افتتح العرب اسبانيا وغنموا ملك القوط ، وشادوا صرح تلك الدولة الأندلسية الزاهرة التي لبثت قروناً تبهر أمم الغرب بقوتها وفخامتها وروائع حضارتها وفنونها . بيد أنه من الغريب أن شخصية الفاتح العظيم — طارق — بينما تبدو في بعض نواحيها وضاءة مشرقة ، إذا بها تبدو في البعض الآخر خفية يكتنفها الغموض ؛ فالرواية الاسلامية تختلف حول نشأة طارق وحول نسبته وجنسيته ، وتكاد تسدل على مصيره بعد الفتح ستاراً من الصمت والنسيان

ولسنا نعرض في هذا البحث لشخصية طارق أو تاريخه أو اختلاف الرواية في شأنه ، ولكنا نعرض لواقعة ترتبط باسمه ، وقد يغلب عليها لون الأسطورة ، وإن كانت مع ذلك تعرض علينا في لون التاريخ الحق ، تلك هي واقعة إحراق السفن التي نقل عليها طارق جيشه من الشاطئ الأفريقي إلى شاطئ الأندلس . ونحن نعرف أن فتح الأندلس قد تم بدعوة من الكونت يوليان القوطي حاكم سبتة والمضيق لخصومة سياسية وشخصية بينه وبين رودريك (لذريق) ملك القوط ، وأنه عاون العرب بخدماته ونصحه ، وأنه هو الذي قدم السفن التي عبر العرب عليها إلى الأندلس في بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك

(رمضان سنة ٩١) ثم فى حملتهم الغازية بقيادة طارق بن زياد (رجب سنة ٩٢ – ابريل سنة ٧١١ م). وهنا تذكر الرواية أن طارقاً ما كاد يعبر بجيشه إلى اسبانيا حتى أمر باحراق السفن التى عبر عليها جيشه وذلك لكى يدفع جنده إلى الاستبسال والموت أو الظفر، ويقطع عليهم كل فكرة فى التخاذل أو الارتداد.

فما مبلغ هذه الرواية من الصحة ؟ إن جميع الروايات الاسلامية التى تحدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة، ولا تذكرها سوى بعض الروايات النصرانية المعاصرة أو المتأخرة؛ ولا تذكرها الرواية الاسلامية إلا فى موطن واحد، فقد ذكر الشريف الادريسى فى معجمه الجغرافى الشهير « نزهة المشتاق » عند الكلام على جغرافية الأندلس أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس [1]؛ وقد نقلت الروايات النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الأدريسى فيما يرجح؛ وفيما عدا ذلك فان جميع الروايات الاسلامية تمر عليها بالصمت المطبق

وهنالك وجه آخر لتأييد هذه الرواية هو الخطاب الذى يقال إن طارقاً ألقاه فى جنده قبيل نشوب الموقعة الحاسمة بينه وبين القوط؛ ونحن نعرف هذا الخطاب الشهير الذى مازال يحفظه الطلاب كنموذج من أبدع نماذج البلاغة العربية؛ فقد استهله طارق بقوله: « أيها الناس؛ أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم؛ وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... » وفى ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الأفريقى، أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التى حملته فى عرض البحر إلى اسبانيا؛ ولكنا نلاحظ من جهة أخرى أن هذا الخطاب الحرفى الشهير الذى تنسبه الرواية الاسلامية المتأخرة إلى طارق، لم يرد فى روايات المؤرخين المتقدمين؛ فمثلاً لم يذكره ابن عبد الحكم والبلاذرى وهما أقدم رواة الفتوحات الاسلامية؛ وذكره ابن قتيبة، ولم يشر اليه ابن الأثير وابن خلدون، ونقله المقرى عن مؤرخ لم يذكر اسمه [2]، وهو على العموم أكثر ظهوراً فى كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين؛ وعلى ذلك فليس فى وسعنا أن نتخذه دليلاً مادياً على واقعة إحراق السفن؛ ولو صح أن طارقاً قد ألقى مثل هذا الخطاب فعلاً — وهو ما نراه موضع الشك — فانه يمكن تفسيره بأن السفن التى عبر عليها طارق وجيشه كانت ملكاً للكونت يوليان القوطى، ولم تكن سوى أربع، وقد عبر الجيش الاسلامى عليها تباعاً فى مرات عدة، فمن المعقول إذاً أن يعتبر طارق أنه فى حالة الهزيمة لم تكن لديه وسيلة سريعة للارتداد وعبور البحر إلى افريقية

على أنا نستطيع مع ذلك أن نأخذ برواية الشريف الادريسى؛ وإذا كان احتراق السفن على هذا النحو لقطع الرجعة والارتداد على جيش فاتح عمل بطولة رائع، فانه لما يتفق مع بطولة فاتح الأندلس، وليس موقف قيصر فى غاليا أو موقف بونابارت فى إيطاليا فيما بعد بأدعى للاعجاب من موقف طارق فى سهل شريش (مكان اللقاء الحاسم)

***

والظاهر أن إقدام الغزاة على إحراق السفن على هذا النحو الذى تنسبه الرواية لفاتح الأندلس نوع من أساطير البطولة الخارقة التى ترجع إلى أقدم عصور التاريخ؛ ففى كثير من مواطن التاريخ القديم الممزوج بخوارق الأسطورة، تعرض مثل هذه الواقعة للتنويه بعمل بطولة خارق. على أننا لا نعدم أيضاً فى التاريخ الحق أمثلة واقعة منها. ففى التاريخ الرومانى مثل رائع لهذا الحدث هو مثل الإمبراطور يوليان فى حملته الفارسية. وكان يوليان منذ جلس على عرش قسطنطينية، يتوق إلى غزو فارس وتحطيم تلك الدولة الشامخة التى ما زالت منذ الحقب تناهض دولة القياصرة، وكان مثل الاسكندر المقدونى يحفزه ويذكى عزمه؛ ففى سنة ٣٦٣ م، سار يوليان من انطاكية حيث كان ينظم أهبته فى جيش ضخم، واخترق صحراء الشام من جهة الشمال، ثم سار جنوباً بحذاء الفرات، وسار فى نفس الوقت فى الفرات أسطول رومانى ضخم يحمل أقوات الجيش؛ ثم عبر يوليان نهر الفرات، واجتاح بلاد الأشوريين، وأشرف على نهر دجلة حيث كان الفرس فى انتظاره فى الضفة الأخرى؛ وحمل الرومان سفنهم المشحونة بالمؤن والذخيرة من الفرات إلى الدجلة بعد جهود ومشاق هائلة؛ واعتزم الامبراطور أن يعبر الدجلة بجيشه ليقابل سابور ملك الفرس فى قلب مملكته كما فعل الاسكندر من قبل حيث هاجم الفرس فى عقر أرضهم؛ وهنا اعتزم الامبراطور فجأة أن ينفذ فكرة جريئة جالت بخاطره

(١) راجع « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » طبع رومة ص ١٧٨

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١١٢

وهى أن يحرق أسطوله الراسى فى دجلة ؛ وفى الحال نفذت الفكرة وأحرق الأسطول الرومانى الضخم ولم تنقذ منه سوى سفن قلائل استبقيت لاجتياز الأنهر ، ولم يتزود الجيش الامبراطورى إلا بمؤونة عشرين يوماً ؛ وكان يوليان يرمى بذلك الاجراء إلى غاية حربية حكيمة هى ألا تمكن القوات الفارسية المحصورة فى مدينة اكتسيفون قاعدة الجزيرة من انتهاز فرصة توغله فى الداخل ومهاجمة أسطوله والاستيلاء عليه وعلى المؤن التى يحملها غنيمة باردة . وقد حكم التاريخ على يوليان ولم يحكم له ، ذلك لأنه لم يكن موفقاً فى غزوته ، وقد لقى جزاء جرأته فى نكبة جيشه أمام الفرس وفى مصرعه متأثراً بجراحه ؛ وارتد الجيش الرومانى مهزوماً ممزقاً ونجت فارس بحريتها واستقلالها مدى ثلاثة قرون أخرى حتى كان الفتح العربى

* * *

وفى التاريخ الحديث مثل واقعى رائع أعدمت فيه سفن الجيش الفاتح ، هو مثل هرناندو كورتيز فاتح المكسيك ؛ ومن غرائب القدر أن يكون أروع نموذج لهذا الضرب من البطولة اسبانياً يذكرنا بطارق فاتح اسبانيا وما ينسب إليه فى هذا الصدد . ومن المرجح جداً أن يكون فاتح المكسيك قد تأثر بالمثل الرائع الذى تنسبه الرواية لفاتح الأندلس ؛ وقد كان طارق وكورتيز فى الواقع كلاهما أمام ظروف متماثلة : مغامرة مجهولة الظروف والعواقب ، ومحاولة جريئة لافتتاح أرض جديدة وعالم جديد ، وجيش قليل العدد ليواجه جيوشاً زاخرة لا يعلم نوعها ولا مدى قوتها . بيد أن مغامرة كورتيز وقعت فى ظروف أكثر دقة وخطورة ؛ فقد كانت اسبانيا من أمم العالم القديم ولم تكن مجهولة تماماً من العرب وكان بها شعب قديم يتمتع بحضارة لا بأس بها ؛ ولكن كورتيز كان أمام عالم مجهول تكتنفه الظلمات من كل ناحية ، ولم يكن يعرف ما هى الأرض ، وما هى الأمم التى يزمع اقتحامها بجنده القليل

وصل كورتيز فى أسطوله المتواضع الى مياه المكسيك فى سنة ١٥١٩ ليغزو امبراطورية « الازتكيين » الهندية ، ولم يكن يعرف الأسبان يومئذ عنها شيئاً إلا أنها امبراطورية ضخمة غنية تفيض بالنعم والذهب الوهاج ؛ وما كاد كورتيز وجنده يضعون أقدامهم فى الأرض الجديدة ، حتى فكر الفاتح الجرىء فى إعدام سفنه ؛ وأعدمت فى الحال بإغراقها ؛ وكان كورتيز يرمى بهذا الاجراء إلى غاية ظاهرة هى ألا يدع إلى قلوب جنده سبيلا إلى الخور أو أملا فى الارتداد . إما الظفر أو الموت : هكذا كان شعار كورتيز ، وهكذا كان عزمه وخطته ، وكان عملاً جريئاً ، ولكن ضرورياً ، حتى لا يجد الناقمون أى وسيلة لمغادرة إخوانهم ، وحتى يرتمى الجميع فى أحضان الموت لا يلتمسون به بديلاً سوى الظفر . ولا ريب أن عمل كورتيز عمل بطولة خارق ، وربما كان أعظم عمل من نوعه فى التاريخ ، لأن الفاتح الأسبانى تقدم فى جرأة مدهشة لافتتاح الامبراطورية الهندية العظيمة بجيش لا يعدو عدة مئات ، ولم يحجم مع ذلك عن إعدام أسطوله ، وهو وسيلته الوحيدة للنجاة فى حالة الهزيمة والفشل ؛ وكان ظفره بافتتاح ذلك العالم الجديد عظيماً مدهشاً [1]

ومثل هذه الحوادث تبدو فى التاريخ كالأسطورة وقد تمتزج أحياناً بالأساطير ؛ وكلما بعدت فى ثنايا التاريخ كلما كان امتزاجها بالأسطورة أشد وأقوى . بيد أننا هنا أمام أمثلة واقعة . وفى التاريخ حوادث من نوع مماثل فى شذوذه وروعته ما زالت فى عصرنا تبدو كالأعاجيب الخارقة ، فمثلاً يذكر التاريخ أن محمداً الثانى سلطان الترك العثمانيين وفاتح قسطنطينية ، حينما حاصر قسطنطينية من البر والبحر ، ولم يستطع أسطوله أن يقتحم خليج القرن الذهبى الذى تقع عليه المدينة من البحر ، اعتزم فى الحال أن ينقل أسطوله إلى البر ، مما يلى مؤخرة القرن الذهبى ، ونفذ مشروعه الخارق بالفعل ونقل أسطوله الضخم على طريق من الخشب المطلى بالدهن والشحم ، ثم دفعه إلى داخل القرن الذهبى ؛ وبذلك تم تطويق المدينة ، ولم تلبث أن سقطت فى أيدى الغزاة (١٤٥٣ م) . بيد أن هذه الحوادث والأعمال الخارقة لا تبدو فى روعتها الحقيقية إلا إذا اصطبغت بألوان العصر الذى وقعت فيه ، وقد ينتقص من قدرها إذا قدرت بمعيار عصرنا ، وتفهمها روح العصر الذى وقعت فيه هو وحده الذى يسبغ عليها هذا اللون القوى من البطولة الخارقة ، وهذا السحر الذى تبثه إلينا أعمال تشبه الأساطير فى روعتها

محمد عبد الله عنان

(١) نرى أن نشير هنا إلى كتاب من أبدع كتب التاريخ هو « فتح المكسيك « Conquest of Mexico » للمؤرخ الأمريكى وليم برسكوت ، ففيه عرض بديع لسيرة هذا البطل الفاتح وأعماله العظيمة

التشـــجيع ....

للأستاذ علي الطنطاوي

سيدي . . . . . صاحب الرسالة ، أنت لا تحب الثناء ، ولكن القراء يحبون الحقيقة ، فأرجو أن تنشر لهم هذا الفصل « علي »

قرأت ما كتب عني وعن كتابي « أبو بكر الصديق » أستاذنا أديب العربية الأستاذ الزيات ، فقرأت فيه صفحة من كرم السجايا ، ونبل الأخلاق ، والتشجيع الذي يتفضل به الكبير على الصغير ، فيسدد به خطواته ، ويأخذ بيده ، ويصب من قوته في أعصابه ، حتى يقوى ويشتد ويتقدم ، فأحببت أن أعلق على هذا التقريظ بكلمة في التشجيع وماله من الأثر في العلوم والآداب ، وأن أفي للحق والواجب ، بأن أسجل للأستاذ وللرسالة ، ماله علينا من منّة ، وما للرسالة علينا من يد ؛ وأنا وأصحابي هنا مدينون للرسالة ، بما نجد من قوة ، وما نحس من نشاط ، ما كنا لولا « الرسالة » نحس منه شيئاً ؛ وما رأينا قبل الرسالة مجلة أدبية راقية ، فتحت أبوابها لأدباء العربية جميعاً ، لا تفرق بين أبناء قطر وقطر ، وبلد وبلد ، ولا تزن الأدباء بالشهرة الواسعة ، ولكن بالانتاج القيم ، فكانت بذلك الرسالة ديوان العرب المشترك ، وسجل الأدب الحديث ، وجعلت من قرائها ــ وقراؤها كل الناطقين بالضاد ــ أسرة واحدة ، تجمعها وحدة المبدأ ، ووحدة الغاية . وهل أجل في اثبات هذه الوحدة ، من رجل يكتب مقالة عن الأوزاعي من فلسطين ، فيعقب عليه آخر من الشام ، ويجيبه ثالث من مصر ، ويعلق عليها رابع من سنغافورة ثم يكتب في الموضوع خامس من دمشق ؟ . . . . كأن الرسالة قد محت بسحرها ما بين سنغافورة والشام من صحاري وبحار ، وجبال وأنهار فغدت هذه من تلك ، كالمقعد من المقعد في الصف الواحد ، يخرج رأي من هنا ، ورأي من هنا ، ويسمع الأستاذ وهو على منبره الرأيين ليقول القول الفصل ، وينطق بالكلمة الحاسمة وما الأستاذ إلا الزيات وما المنبر إلا الرسالة !

***

أشكر للأستاذ هذه السنّة التي يتبعها في تشجيع صغار الأدباء ، والأخذ بأيديهم ، لأن التشجيع مذ كان أصل التقدم ، وسبب النجاح ؛ وقد قرأت مرّة أن مجلة انكليزية كبيرة سألت الأدباء عن الأمر الذي يتوقف عليه نمو العلوم وازدهار الآداب ، وجعلت لمن يحسن الجواب جائزة قيمة ، فكانت الجائزة لكاتبة مشهورة قالت : إنه التشجيع ! وقالت : انها في تلك السنّ ، بعد تلك الشهرة والمكانة ، تدفعها كلمة التشجيع حتى تمضي إلى الامام وتقعد بها كلمة التثبيط عن السير .

وإن من أظهر الأسباب في ركود الأدب في الشام في القرن الماضي ، وانقطاع سبيل التأليف ، هو فقدان التشجيع ؛ وذلك «الاحتكار العلمي» الذي قتل كثيراً من النفوس المستعدة للعلم ، وخنق كثيراً من العبقريات المهيئة للظهور ، فقد كان العلم في الشام مقصوراً يومئذ على بيوت معروفة ، لا يتعداها ولا يجوز أن يتعداها ، هي : بيت العطار ، والحزاوي ، والغزي ، والطنطاوي ، والشطي ، والخاني ، والكزبري ، والاسطواني ، والحلبي . . . وكانت كلها متجمعة حول المدرسة البادرائية ؛ في القيمرية والعمارة ، وزقاق النقيب ، حيث يسكن الأمير العالم المجاهد عبد القادر الجزائري رحمة الله عليه وعليهم ؛ وكان لهذه البيوت كل معاني الامتياز و « الاحتكار العلمي » ، فاذا سُمع أن شاباً اشتغل بالعلم من غير هذه البيوت ، وقدروا فيه النبوغ ، وخافوا أن يزاحمهم على وظائفهم الموروثة ، بذلوا الجهد في صرفه عن العلم ، والعدول به إلى التجارة ؛ أوليست الوظائف العلمية وقفاً على هذه البيوت ؟ أوليس للولد ولاية العهد في وظيفة أبيه ، تنحدر اليه الأمامة أو الخطابة أو التدريس عالماً كان أو جاهلاً ، فكيف إذن يزاحمهم عليها أبناء التجار ، وهم لا يزاحمون أبناء التجار على « حوانيتهم » ؟ أو لا يكفي أبناء التجار هذا القسط الضئيل من النحو والصرف والفقه والمنطق الذي يمن به عليهم هؤلاء العلماء ؟ . . .

حتى إنه لما نشأ محمد أمين (ابن عابدين) وأنسوا منه الميل الى العلم ، وعرفوا فيه الذكاء المتوقد ، والعقل الراجح ، خافوا منه فذهبوا يقنعون أباه — وكان أبوه امرأً تاجراً — ليسلك به سبيل التجارة ، ويتنكب به طريق العلم ، وجعلوا يكلمونه ،

ويرسلون اليه الرسل ، ويكتبون اليه الكتب ، ويستعينون عليه بأصحابه وخلصائه ، ولكن الله أراد بالمسلمين خيراً ، فثبت الوالد فكان من هذا الولد المبارك ، ابن عابدين صاحب « الحاشية » ، أوسع كتاب فى فروع الفقه الحنفى

بل لقد أرادوا أن يصرفوا أستاذنا العلامة محمد بك كرد على من العلم ، فبعثوا اليه بشقيقين من آل . . . بشقيقين قد ماتا فلست أسميهما ، على رغم أنهما قطعا عن العلم أكثر من أربعين طالباً – فما زالا بأبيه – ولم يكن أبوه من أهل العلم – ينصحانه أن يقطعه عن العلم ، ويعلمه مهنة يتكسب منها ، فما فى العلم نفع ، ولا منه فائدة . . . ويلحان عليه ويلازمانه ، حتى ضجر فصرفهما فكان من ولده هذا ، الأستاذ كرد على أبو النهضة الفكرية فى الشام وقائدها ، ووزير معارف سورية (١) ومفخرتها ، والذى من مصنفاته : خطط الشام ، وغرائب الغرب ، والقديم والحديث ، والمحاضرات ، وغابر الأندلس وحاضرها ، والادارة الاسلامية ، والاسلام والحضارة العربية . . . والمقتبس . . . ومن مصنفاته : « المجمع العلمى العربى بدمشق » ، ومن مصنفاته هؤلاء : « الشعراء والكتاب من الشباب » ! . .

ولعل فى الناس كثيرين كانوا لولا الاحتكار والتثبيط كابن عابدين أو ككرد على . وهلهو ذا العلامة المرحوم الشيخ سليم البخارى مات وماله مصنف رسالة فما فوقها ، على جلالة قدره ، وكثرة علمه ، وقوة قلمه ، وشدة بيانه ؛ وسبب ذلك أنه صنف لأول عهده بالطلب رسالة صغيرة فى المنطق ، كتبها بلغة سهلة عذبة ، تنفى عن هذا العلم تعقيد العبارة ، وصعوبة الفهم ، وعرضها على شيخه ، فسخر منه وأنبه ، وقال له :

أيها المغرور ! أبلغ من قدرك أن تصنف ، وأنت . . وأنت . . ثم أخذ الرسالة فسجر بها المدفأة . . فكانت هى أول مصنفات العلامة البخارى وآخرها !

وقد وقع لى أنى كنت فى المدرسة وكنت أحاول أن أنظم الشعر ، فآخذ أبياتاً قديمة فأغير قوافيها ، وأبدل كلماتها ، وأدعيها لنفسى ، كما يفعل اليوم بعض الأدباء « التراجمة » حين يترجمون الكلمة الانكليزية أو الفرنسية حتى إذا بلغوا التوقيع ترجموه هو أيضاً ، فكانت ترجمة اسم المؤلف أو الكاتب اسم الترجمان أو « السارق » ! وكان الكتاب أو الفصل المترجم من وضع أديبنا البارع . . .

كنت أنظم أبياتاً من الشعر أو أسرقها ، كما ينظم كل مبتدئ ويسرق ، حتى إذا اجتمع عندي كثير من القطع ، عرضته على أستاذ العربية ، وكان لسوء الحظ تركياً يسمى اسماعيل حقى أفندى ، يعلمنا النحو العربى باللسان التركى ! فلما قرأه سخر منى وسبنى وتهكم علىّ ، وجاء من بعدُ أخى أنور العطار – فنظم كما كنت أنظم حتى إذا اجتمع عنده كثير من القطع ، عرضه على الأستاذ كرد على رئيس المجمع العلمى العربى ، فأقام له حفلة تكريمية !

فكانت النتيجة أنى عجزت عن الشعر ، حتى لَنَقْلُ البحر بفمى أهون علىّ من نظم خمسة أبيات ، وأن أخى أنور العطار غدا شاعر الشباب السورى ، وسيغدو شاعر شباب العرب !

* * *

وأول من سنّ سنة التشجيع فى بلدنا هو العلامة المرحوم مربى الجيل الشيخ طاهر الجزائرى ، الفيلسوف المؤرخ الجدلى ، الذى من آثاره المدارس الابتدائية النظامية فى الشام ، والمكتبة الظاهرية ، والأستاذ محمد كرد على بك ، وخالى الأستاذ محب الدين الخطيب . . . . ومما كتب فى ذم التثبيط :

« . . . وقد عجبت من أولئك الذين يسعون فى تثبيط الهمم ، فى هذا الوقت الذى يتنبه فيه الغافل . . .

وكان الأجدر بهم أن يشفقوا على أنفسهم ويشتغلوا بما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع ، ولم نر أحداً من المثبطين قديماً أو حديثاً أتى بأمر مهم ، فينبغى للجرائد الكبيرة ، أن تكثر من التنبيه على ضرر هذه العادة ، والتحذير منها ، ليخلص منها من لم تستحكم فيه ، وينتبه الناس لأربابها ليخلصوا من ضررهم »

وكان الشيخ فى حياته يشجع كل عامل ، ولا يثنى أحداً عن غاية صالحة ، حتى لقد أخبرنى أحد المقربين منه أنه قال له : إذا جاءك من يريد تعلم النحو فى ثلاثة أيام ، فلا تقل له إن هذا غير ممكن . فتفل عزيمته ، وتكسر همته ، ولكن أقرئه وحبب إليه النحو ، فلعله إذا أنس به واظب على قراءته

(١) سابقا

ثم ان التشجيع يفتح الطريق للعبقريات المخبوءة حتى تظهر وتثمر ثمرها ، وتؤتى أكلها ؛ ورب ولد من أولاد الصناع أو التجار يكون إذا شجع وأخذ بيده عالماً من أكابر العلماء ، أو أديبا من أعاظم الأدباء ! وفي علماء القرن الماضي في الشام من ارتقى بالجد والدأب والتشجيع من منوال الحياكة ، إلى منصب الافتاء ، وكرسي التدريس تحت القبة .

نشأ الشيخ محمد اسماعيل الحائك عامياً ، ولكنه محب للعلم ، محب للعلماء ، فكان يحضر مجالسهم ، ويجلس في حلقهم للتبرك والسماع ، وكان يواظب على الدرس لا يفوته الجلوس في الصف الأول ، فجعل الشيخ يؤنسه ويلطف به ، لما يرى من دوامه وتبكيره ، ويسأل عنه إذا غاب ، فشد ذلك من عزمه ، فاشترى الكتب يحيي ليله في مطالعة الدرس ، ويستعين على ذلك بالنابهين من الطلبة ، واستمر على ذلك دهراً حتى أتقن علوم الآلة ، وصار واحد زمانه في الفقه والأصول ، وهو ما كف عن مهنته لم يتركها ؛ وصار الناس يأتونه في محله يسألونه عن مشكلات المسائل ، وعويصات الوقائع ، فيجيبهم بما يعجزعنه فحولة العلماء . وانقطع الناس عن المفتي من آل العمادي فساء ذلك العماديين وآلمهم ، فتربصوا بالشيخ وأضمروا له الشر ، ولكنهم لم يجدوا إليه سبيلاً ، فقد كان يحيا من عمله ، ويحيا الناس بعلمه ، وكان يمر كل يوم بدار العماديين في « القيمرية » وهو على أتان له بيضاء ، فيسلم فيردون عليه السلام ، فمر يوماً كما كان يمر ، فوجد على الباب أخا للمفتي ، فرد عليه السلام ، وقال له ساخراً :

— إلى أين يا شيخ ! أذاهب أنت إلى (اسطمبول) لتأتي بولاية الافتاء ؟ وضحك وضحك من حوله ، أما الشيخ فلم يزد على أن قال :

— إن شاء الله !

وسار في طريقه حتى إذا ابتعد عنهم دار في الأزقة حتى عاد إلى داره ، فودع أهله ، وأعطاهم نفقتهم ، وسافر !

وما زال يفارق بلداً ، ويستقبل بلداً ، حتى دخل القسطنطينية فنزل في خان قريب من دار المشيخة ، وكان يجلس على الباب يطالع في كتاب ، أو يكتب في صحيفة ، فيعرف الناس من زيه أنه عربي فيحترمونه ويجلونه ، ولم يكن الترك قد جنوا الجنة الكبرى بعد . . . : فكانوا يعظمون العربي ، لأنه من أمة الرسول الأعظم الذي اهتدوا به ، وصاروا به وبقومه ناساً . . .

واتصلت أسباب الشيخ بأسباب طائفة منهم فكانوا يجلسون إليه يحدثونه ، فقال له يوماً رجل منهم :

— إن السلطان سأل دار المشيخة عن قضية حيرت علماءها ولم يجدوا لها جواباً ، والسلطان يستحثهم وهم حائرون ، فهل لك في أن تراها لعل الله يفتح عليك بالجواب ؟

قال : نعم

قال : سر معي الى المشيخة

قال : باسم الله

ودخلوا على ناموس المشيخة (سكرتيرها) ، فسأله الشيخ اسماعيل عن المسألة فرفع رأسه فقلب بصره فيه بازدراء ، ولم تكن هيئة الشيخ بالتي ترضي ، ثم ألقاها اليه وانصرف الى عمله ، فأخرج الشيخ نظارته فوضعها على عينه فقرأ المسألة ثم أخرج من منطقته هذه الدواة النحاسية الطويلة التي كان يستعملها العلماء وطلبة العلم للكتابة وللدفاع عن النفس ، فاستخرج منها قصبة فبراها ، وأخذ القط فقطها ، وجلس يكتب الجواب بخط نسخي جميل حتى سود عشر صفحات ما رجع في كلمة منها الى كتاب ، ودفعها إلى الناموس ، ودفع اليه عنوان منزله وذهب . فلما حملها الناموس الى شيخ الاسلام وقرأها ، كاد يقضي دهشة وسروراً

— وقال له : ويحك ! من كتب هذا الجواب ؟

— قال : شيخ شامي من صفته كيت وكيت . . . .

— قال : علي به

فدعوه وجعلوا يعلمونه كيف يسلم على شيخ الاسلام ، وأن عليه أن يشير بالتحية واضعاً يده على صدره ، منحنياً ، ثم يمشي متباطئاً حتى يقوم بين يديه . . . . إلى غير ذلك من هذه الأعمال الطويلة التي نسيها الشيخ ، ولم يحفظ منها شيئاً

ودخل على شيخ الاسلام ، فقال له :

— السلام عليكم ورحمة الله ، وذهب فجلس في أقرب المجالس اليه . وعجب الحاضرون من عمله ولكن شيخ الاسلام سر بهذه التحية الاسلامية وأقبل عليه يسأله حتى قال له :

— سلني حاجتك

ـ قال : إفتاء الشام وتدريس القبة

ـ قال : هالك . فاغد علي غداً !

فلما كان من الغد ذهب اليه فأعطاه فرمان التولية وكيساً فيه ألف دينار

وعاد الشيخ إلى دمشق فركب أتانه ودار حتى مرّ بدار العاديين فاذا صاحبنا على الباب ، فسخر منه كما سخر وقال :

ـ من أين ياشيخ ؟

ـ فقال الشيخ : من هنا ، من اسطنبول . أتيت بتولية الافتاء كما أمرتني

ثم ذهب إلى القصر فقابل الوالي بالفرمان ، فركع له وسجد وسلم الشيخ عمله في حفلة حافلة

* * *

ومن هذا الباب قصة الشيخ على كزبر ، وقد كان خياطاً في سوق المسكية على باب الجامع الأموي ، فكان إذا فرغ من عمله ذهب فجلس في الحلقة التي تحت القبة فاستمع إلى الشيخ حتى يقوم فيلحق به فيخدمه ، وكان الشيخ يعطف عليه لما يرى من خدمته إياه ، فيشجعه ويحثه على القراءة فقرأ ودأب على المطالعة ، حتى صار يقرأ بين يدى الشيخ في الحلقة ، ولبث على ذلك أمداً وهو لا يفارق دكانه ولا يدع عمله ، حتى صار مقدماً في كافة العلوم

فلما مات الشيخ حضر في الحلقة الوالي والأعيان والكبراء ليحضروا أول درس للمدرس الجديد ، فافتقدوا المعيد فلم يجدوه . ففتشوا عليه فاذا هو في دكانه يخيط ، فجاءوا به ، فقرأ الدرس وشرحه شرحاً أعجب به الحاضرون وطربوا له . فعيّن مدرساً ولبث خمسة عشر عاماً يدرس تحت قبة النسر ، وبقيت الخطبة في احفاده إلى اليوم [1]

على أن للتشجيع عيباً واحداً هو الغرور ، فأنا أعوذ بالله أن أغتر فأصدق أني أهل لكل ما تفضل به عليّ الأستاذ من النعوت ، وأرجو أن أوفق إلى الجد والتقدم بتشجيع الأستاذ وفضله ، وأشكر للأستاذ الزيات باسمي واسم إخواني هنا ، أياديه علينا وعلى الأدب العربي ، التي سمت وتسمو به « الرسالة » !

على الطنطاوى

(١) ومدرس القبة الرسمي اليوم شاب أوربي الزى ، أوربي اللسان ، أوربي الزوجة . لا يدخل المسجد مرة في العام ، ولكنه مدرس القبة !

٤ ـ النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

الحروف اللاتينية

انتشر الاسلام بين الأمم فدخل الناس فى الاخوة الاسلامية وصاروا أمة واحدة ، واتخذوا اللغة العربية لسان الدين والعلم ، لا يكتبون غيرها

ولما حيّت لغاتهم على مرّ الزمان بجانب العربية كتبوها بالخط العربىّ الذى ألفوه ، وترك من كان ذا كتاب منهم كتابته الأولى . ولم يخسروا فى هذا شيئاً إذ كانت الكتابة العربية على علاّتها أوضح وأيسر مما كان عندهم

— ١ —

كان الفرس يكتبون بالخط الفهلوى ، وهو مشتق من الخط الآرامىّ القديم ، والخط الفهلوى مبهم مشكل . قال الأستاذ براون إنه يصدق فيه ماقاله أحد الفرنسيين عن الخطابة إنها فن إخفاء الأفكار ، يعنى أنه خط يخفى الألفاظ . ذلك بما تشابهت حروفه ، وبما اشتركت الأصوات المختلفة فى بعض الحروف . وقد أدّى هذا اللبس الى مالم يعهده التاريخ فى لغة أخرى . كان الكتاب يكتبون كلمة آرامية مكان كلمة فارسية خوفاً من اللبس ، فاذا قرأوا نطقوا بالكلمة الفارسية غير المكتوبة ، وتركوا الآرامية المكتوبة . روى عن ابن المقفع أنه قال : إن فى اللغة الفهلوية ألف كلمة تقرأ ولا تكتب . وروى ابن النديم فى الفهرست من أمثلة هذا أنهم كانوا يكتبون كلمة « بسرا » الآرامية ويقرءون گوشت (لحم) بالفارسية ، ويكتبون « لحما » الآرامية ويقرأون نان (خبز) بالفارسية

ولم تكن الألفاظ الآرامية مقصورة على ما يستعار من لغة الى أخرى من الأسماء ، بل كان فيها أفعال وضمائر وإشارات . وكانوا يلحقون بالكلمات الآرامية خواتم فارسية الخ ، ومن أجل صعوبة الخط الفهلوى ندر القارئون فى ذلك العهد

فكان خيراً للفرس أن كتبوا لغتهم بالحروف العربية لهذا ، وللأخوة العامة التى أدخلهم الاسلام بها حين مدّ ظله على الأمم وأراد أن يمحو الفروق بين بنى آدم

— ٢ —

وأما الترك فكان أكثرهم قبائل أمية لا تعرف قراءة ولا كتابة ، وتسربت الى طوائف منهم كتابات الأمم المجاورة . كتبت بعض الأسماء والألقاب التركية بالهيروغليفية الصينية فى القرنين السابع والثامن بعد الميلاد . ولما أريد تنصير الترك النازلين على بحر الخزر فى القرن السادس ترجم لهم الكتاب المقدس ، وكتب بالحروف اليونانية . وكذلك كتبت التركية بالحروف اليونانية فى جهات الطونة ، وكذلك كتبت التركية بالعبرية ، والنسطورية ، والهندية ، والسلافية ، والأرمنية الخ الخ

وقد أثر عن جماعات من الترك ضربان من الكتابة يمكن أن يعدّا كتابة تركية . وهما الخط الأورخونى الذى دلت عليه الآثار التى عثر عليها حوالى نهر أورخون فى سيبريا ، والخط الأويغورى . والأول كتبت به تركية الشمال ، وبالثانى كتبت تركية الجنوب

فأما الخط الأورخونى فيرى أكثر العلماء أنه مشتق من الخط الآرامى القديم . وقد كتب به فئات من الترك من القرن الرابع الميلادى الى القرن الثامن . وهو مؤلف من ثمانية وثلاثين حرفاً ، أربعة منها حروف حركة ، وثلاثة منها مركبة . ويوصل به غالباً كلمتان أو ثلاث معاً . وأحياناً يستغنى بالحرف من الكلمة فتكتب (ت) للدلالة على آت (فرس) و (ز) للدلالة على آز (قليل) وهكذا . ولا ريب أن هذا الخط لا يقاس بالخط العربى وضوحاً ويسراً وكمالاً

وأما الخط الأويغورى وهو أحدث الخطين ، وأطولهما عهداً ، وأوسعهما انتشاراً ، فيظن أنه حل محل الخط الأول منذ القرن الثامن الميلادى . كتبت به أول الأمر ترجمة الكتب البوذية ، وبقى بين الأويغوريين وغيرهم من الترك ، بعد أن دخلوا فى الاسلام فكتبت به الدولة الخاقانية فى كشغر (٣٢٠ ـ ٦٠٩ ﻫ) والدولة الجنكيزية ، والايلخانية (٦٥٤ ـ ٧٤٤) ودولة آلتون أوردو فى قفجاق (٦٢١ ـ ٩٠٧) . وكتبت به بعض الكتب الاسلامية حتى القرن العاشر الهجرى . وهذا الخط مشتق من الخط الصُغْدى والصغدى مأخوذ من الآرامية أيضاً ، وهو أربعة عشر حرفاً يدل بعضها على أصوات مختلفة . وهو من

اللبس والعسر بحيث لا يقاس بالخط العربي أيضاً

فكان من نعم الاسلام أن بدل بهذين الخطين الخط العربي الذي صار خط الأمم الاسلامية جماء. ثم الآثار القليلة التي أثرت في الخطين الأورخوني والأويغوري في بقاع ضيقة، وموضوعات تافهة لا تقاس بما كتب باللغة التركية والحروف العربية في العهد الاسلامي إذ أفاد الترك من الحضارة الاسلامية، ودخلوا في جماعة المسلمين، وتمكن سلطانهم بينهم

— ٣ —

والتركية العثمانية التي اختيرت لها الحروف اللاتينية أخيراً لم تعرف في تاريخها غير الحروف العربية، ولم تدوّن إلا في ظل الحضارة الاسلامية بعد سبعة قرون من الهجرة.

دخل السلاجقة في الاسلام ثم أقاموا دولتهم في القرن الرابع وفتحوا بغداد سنة ٤٤٧، وامتد سلطانهم على آسيا الغربية من أفغانستان إلى البحر المتوسط. ثم تقسم الخلف ميراث السلف فكان من الدول السلجوقية المتعددة دولة سلاجقة الروم وهي التي نشأت في الأناطول وما يصاقبه

وكان الأدب الفارسي في القرن الخامس قد ازدهر بجانب الأدب العربي، فأخذ السلاجقة حضارة الاسلام باللغتين العربية والفارسية. فكانت العربية لغة العلم عند سلاجقة الروم والفارسية لغة الدواوين. وكان الأدب التركي مقصوراً على العامة، غير مدوّن

ولما نشأت إمارة قرمان بعد منتصف القرن السابع صارت التركية أول مرة لغة الدواوين وكتبت بالحروف العربية

وقد اشتملت هذه التركية المكتوبة على كثير من الكلمات العربية والفارسية

— ٤ —

وكانت الكتابة التركية في عهدها الأول تقارب الأسلوب العربي لا تكتب فيها حروف الحركة إلا قليلا. ثم أثبتت حروف العلة والهاء للدلالة على الحركات دون تعميم. ثم انتهى الأمر في العصر الأخير إلى أن كتبت حروف الحركة في كل كلمة فصارت الكتابة التركية كالكتابة اللاتينية: كل حرف صحيح يليه حرف معتل للدلالة على الحركة

فاذا قرأنا مثلاً في ديوان سلطان ولد ابن مولانا جلال الدين الرومي وهو أول ناظم بالتركية العثمانية نجد رسم الكلمات الآتية على هذا النسق: أل (هـذا) كُرُر (يرى) بقمز (لا ينظر) كُنَش (الشمس) أُلُرُ (يكون) أيقُدا (في النوم) أجَر (يطير)، فاذا قرأنا في كتب المتأخرين وجدنا الرسم قد تغير على هذا النسق: أول، گورووو، باقماز، گونَش، أولور، أويقوده، أوچار

وإذا قرأنا في الكتب التي كتبت قبل ثلاثين سنة لا نجد حروف الحركة مثبتة في كل مقطع. فاذا نظرنا في الكتب التي كتبت من بعد وجدنا اطراد حروف الحركات في مقاطع الكلمة. كانت الكلمات الآتية ترسم كما ترى:

تمز (نظيف) آرقداش (أخ) حكنيش (واسع) دها (أيضاً) گبي (مثل) قدر (مقدار) دكل (ليس) درين (عميق) گوزل (ظريف)

فصارت بعد كما يأتي:

تَه ميز (الهاء علامة الفتحة الخفيفية) أرقاداش، گه نيش داها، گيبي، قادار، ده گيل، ده رين، گوزه ل

وكان يسع الكماليين أن يسيروا على هذه السيرة واضين حديثهم بقديمهم مبقين على ما دوّن أسلافهم، ولكنهم آثروا، إنفاذاً لخطتهم، أن ينبذوا الحروف العربية، وهي الحروف التي يكتب بها مسلمو العالم كافة، ولفقوا هجاء من الألمانية والفرنسية والايطالية فبلغوا الكمال المطلوب ولحقوا بالسادة الأوروبيين.

ولست أقول ما قاله أحد كبراء الفرس لأديب تركي يناظره في الحروف اللاتينية: «إنكم معشر الترك ليس لكم من آدابكم ما تفخرون به فآثرتم أن تسدلوا عليها ستراً من الحروف اللاتينية ولكن لنا من آدابنا ما نفخر به ونحرص على قراءته في كل جيل فلسنا نريد أن نغير كتابتنا» لست أقول هذا في الأدب التركي القديم ما هو جدير بالرعاية، وقد افتنّ الترك في تجويد الخط حتى صاروا أئمة فيه وصار لهم من آياته ما يجدر بكل أمة أن تحرص عليه

مسألة الحروف اللاتينية ليست فيما أرى ضرورة أو إصلاحا ولكنها فتنة من فتن تقليد أوروبا التي ضربت الشرق عامة والمسلمين خاصة بالذلة والهوان، وقد بلغ الأمر أن يرى بعض الناس أن تكتب اللغة العربية أيضاً بالحروف اللاتينية، فاذا قلت لهم فما تصنعون بأحد عشر حرفاً من الهجاء العربي ليست في الحروف

اللاتينية ؟ قالوا نضع لها حروفاً لاتينية بالتركيب أو النقط . فياسبّة الأمم ، وعار الأجيال ، وموتى النفوس ، لماذا تجعلون من أنفسكم واضعين مخترعين في حروف اللاتينية ، ولا تكملون ما في حروفكم من نقص ، وتصلحون ما بها من عيب ؟ جرى الجدال بيني وبين واحد منهم فكان منه الحوار الآتي :

قلت : كيف تكتب ، خاشعاً وخاضعاً ، بالحروف اللاتينية ؟

قال هكذا : Khash,i و Khad,i فأركب K ، H للدلالة على الخاء ، و S ، H للشين وأضع مدا على A وأدل على العين بالحرف i مفصولاً عما قبله بشولة كما يفعل المستشرقون

قلت فلماذا كل هذا العناء ؟ لقد اضطررت أن تنقط وتشكل في الحروف اللاتينية ، أترى هذا أيسر وأبين من خاشع وخاضع ، قال : لا ، ولكن الكلمتين بالخط العربي خاليتان من حروف الحركة

قلت : فضع كسرة تحت الشين والضاد . وهذا حسبك ، بل لست في حاجة إلى هذه الكسرة فوزن الكلمة يعين حركاتها . قال هذا صحيح في هذا المثال ، فما بال الكلمات الأخرى . قلت : صدقت فهلمّ نتناول الموضوع على عمومه

ــ ماذا تنقمون من الكتابة العربية ؟

ــ ننقم منها أنها كتابة لا تبين عن الألفاظ ، فهذه الصورة « حسن » تقرأ حَسَن ، وحُسْن ، وحَسُن ، وحَسَّن ، وحُسِّن . . . الخ

ــ قد كانت كتابتنا أول عهدها غير معجمة ولا مشكولة ، مثلاً كانت الجيم والحاء والخاء ترسم بصورة واحدة فأعجم السلف الحروف فامتاز بعضها من بعض ، ثم وجدوا الحرف الواحد في أكثر حالاته مبهم الحركة فشكلوا الحروف فتبينت الحركات ، واستبانت الألفاظ ؛ وكان للحروف صور غير صورها الحاضرة ، فما زال بها الاختراع ، والتجميل والتجويد حتى بلغت جمالها الحاضر ، وتعددت الخطوط ، وجعل لكل مقصد ضرب يواتيه ، فكان خط الثلث والنسخ والرقعة وغيرها . فإن كنتم يا رجال القرن العشرين أحياء قادرين على الابداع ، أباة آنفين من المحاكاة ، وإن تكن عقولكم غير سقيمة ، وقرائحكم غير عقيمة ، فانظروا في كتابتكم ، فان رأيتم عيبا فأصلحوه ، وإن آنستم نقصاً فأكملوه ، ولا تكونوا في عصور العلم ضلالاً ، وفي نور القرن العشرين ظلالاً ، أدخلوا في الكتابة حروف

الحركة إن شئتم ، أو افعلوا غير ذلك إن استحسنتم ، فأما أن تقولوا كتبت أوربا فنكتب مثلها فذلك ضلال العقول ، وهوان النفوس ، والموت الذي لا يستره باطن الأرض

ثم لا تنس يا أخي أن اللغة العربية لها أوزان وصيغ ، فليست كل كلماتها في حاجة إلى الشكل ، ولو اتسع المجال لأبنت لك أن الكاتب العربي يستطيع أن يكتب سطوراً لا يحتاج فيها إلا إلى شكلات قليلة ، وقد ضربت مثلاً من هذا في مقدمة الشاهنامه

ــ هب ما قلت صواباً ، فماذا ترى في شكاوى أصحاب المطابع من كثرة صور الحروف العربية : للحرف صورة في أول الكلمة وأخرى في وسطها وثالثة في آخرها ، على حين لا يرى الطابع الأوربي أمامه للحرف إلا صورة واحدة

ــ بل صورتين صغيرة وكبيرة

ــ أجل وهذه ميزة أخرى للحروف اللاتينية

ــ هذه الشكاوى هي شكاوى أصحاب المال من كثرة العمال ؛ كل صاحب مطبعة يود أن يديرها عامل واحد ، ليأخذ كثيراً ويعطي قليلاً ، وأما القارئ فسيان عنده أن يكون الذين هيأوا الجريدة خمسة عمال أو مائة ، ثم أخبرني : ما الذي جعل للحروف اللاتينية هذه الميزة ؟

ــ صور هذه الحروف ، ثم فصل بعضها من بعض

ــ قد كانت الحروف اللاتينية كلها موصولة ولا تزال توصل في كتابة اليد ، فلما كانت المطابع استحسن الأوربيون أن يفصلوا بعضها من بعض ، فما الذي يمنعكم أيها المقلدون أن تفصلوا حروفكم فلا يكون للحرف في المطبعة إلا صورة واحدة ؟

ــ هذا يبدو لي صواباً ولكنه عجيب غريب

ــ أعجب منه أن نفكر في كتابة لغتنا بالحروف اللاتينية . قد هانت علينا نفوسنا حتى صار التقليد يسيراً قريباً ، والاختراع مهما قل عجيباً غريباً

ــ لا تنس أن العلوم والمخترعات قربت بين الأمم وطوت المسافات بين أطراف الأرض . والأمم صائرة إلى التوحد فلماذا لا تكتب لغات الأمم كلها بالحروف اللاتينية ؟

ــ أجل قربت العلوم والمخترعات بين الأمم ، ولكن أوربا لا تعرف الأخوة بين الناس ، ولا تزال تفرق بينهم بأتفه الأشياء وهي الألوان . والتوحيد الذي تريده أوربا أن تكون هي آكلة

ونحن ما كولين . وهذا حديث يضيق عنه مقامنا الآن . وبعد فلماذا يكون توحيد الكتابة بالحروف اللاتينية ولا يكون بالحروف العربية ؟ ان أردت أن تمتحن صدق الداعين إلى التوحيد فادعهم إلى استعمال الحروف العربية فستبلغ بهم الكبرياء والازدراء والسخرية والعجب ألا يجيبوك بكلمة . ولن يكون ذلك لما عرفوا من فضل حروفهم على حروفنا ، بل لأن هذه حروفهم وتلك حروفنا . وسيشترك في السخرية من لم ير الحروف العربية قط . ثم هل اتفق الأوربيون على الكتابة بحروف واحدة ؟ وهل استعملوا الحروف التي اتفقوا عليها بأسلوب واحد ؟ أذكر أنه منذ ثلاث سنين جاء إلى أستاذ كبير في الجامعة المصرية كتاب من جماعة في أوربا يدعونه إلى العمل معهم على تعميم الحروف اللاتينية في العالم ، فسألني رأيي فيما يجيبهم به فقلت ان كان لابد أن تجيب فاكتب إليهم أن ابدأوا بكتاباتكم فوحدوها فاذا صار الروسي واليوناني والألماني والفرنسي والانكليزي والاسباني الخ يكتبون بحروف واحدة ، وأجمعوا في كتابة هذه الحروف على نمط واحد فاكتبوا إلينا لنفكر في الأمر

وبعد ، فاللغات يا أخي مهما أحكمت كتابتها ، لا تؤخذ من الكتب وحدها بل لابد لها من التلقين . تعرف الكلمة بالسماع ثم تدل الكتابة عليها دلالة تامة أو ناقصة . وكثيراً ما تكون الحروف كالرموز أو العلامات يلمحها الانسان فيعرف ما وراءها من لفظ قبل أن يكمل قراءتها ، ويدرك اللفظ من صورة الحروف مجتمعة بل كأنه يفهم المعاني من النقوش دون توسط الألفاظ . وإذا أسرع القارئ سلط عينيه على المكتوب وقصر لسانه عن مجاراة عينيه ، ثم يا أخي هل بلغت الحروف اللاتينية التي فتتنم بها درجة الكمال ، وبرئت من العيوب ؟ ألست ترى الصوت الواحد تدل عليه حروف عدة فصوت الكاف تدل عليه C ، k ، q ، والحرف الواحد يدل على أصوات مختلفة فالحرف c يلفظ مرة ك وأخرى س ، و g يكون س حيناً وحيناً ز وهلم جرا

والكتابة الفرنسية ، وهي أدق الكتابات الأوربية ، فيها عيوب كثيرة فاللفظ الواحد أو الألفاظ المتحدة في الصوت تكتب بصورة مختلفة مثل palais و pose, palet و pot, pause و pau, pean و Choud, Chaux و Crét, Craie . فالصوت وحده لا يدل على رسم الكلمة . وكم في الفرنسية من حروف تكتب ولا تلفظ أحياناً كما ترى في الكلمات السابقة

وأنت تعرف الكتابة الانكليزية ، ودلالتها على الألفاظ بالجملة لا التفصيل ، وكم من حرف فيها يلفظ ولا يكتب وآخر يكتب ولا يلفظ وحسبك مثل daughter و night laugh, nerghbour wright . ولو قرأ قارئ الكلمات الانكليزية كما تدل عليها حروفها مافهم عنه أحد ، وقل أن تسأل رجلاً أو صبياً انكليزياً عن اسمه أو اسم شارع إلا أتبع الاسم بهجائه علماً بأن الصوت لا يدل على الحروف والامبراطورية الانكليزية ، مع هذا ، لم تضمحل بهذه الكتابة ، والأساطيل البريطانية لم تصطدم بهذه الحروف وما رأيت مصرياً من الميانين الطعانين في الحروف العربية جرؤ مرة على عيب الاملاء الانكليزي أو تنبه إلى عيوبه . وذلك بأن الحروف العربية لا تحميها امبراطورية ولا أساطيل ، نعوذ بالله من ضعف الهمم ، وذل الأمم

وإن للحروف العربية لمزايا عظيمة فهي أيسر كتابة . لا تملى على صبي كلة فيخطئ كتابتها إلا الكلمات المهموزة . وهي كذلك أخصر رسماً يستطيع كاتبها أن يساير خطيباً أو مدرساً فيكتب كل ما يقول ، وهي في جملتها أوضح من كتابة اليد في اللغات الأوربية . قال لي مستشرق ألماني كبير قد أتقن اللغات العربية والفارسية والتركية ، وحذق كثيراً من لغات أوروبا : « ما أشكل علي قط قراءة رسالة عربية وقد أشكل علي وعلى غيري مرات كثيرة قراءة رسائل ألمانية »

هذا إلى ملاءمة الكتابة العربية للعين . قال لي طبيب كبير من أطباء العيون : إن الحروف اللاتينية بكثرة زواياها أشق على البصر من الحروف العربية

إن مجال القول يا صاحبي واسع . وما بكم صعوبة الحروف العربية ، ولكن الغرام بمتابعة أوربا ، والخجل من التمسك بما أورثكم آباؤكم . ما بكم علة الحروف العربية ولكن علل الذلة والمهانة ، واحتقار أنفسكم وتعظيم غيركم . إن المريض يكثر التحدث عن صحته ، ويكثر اتهام الأطعمة والأشربة ، كلما أحس السقم ظن أن الماء الذي شرب به قد أضر به ، أو أن الطعام الذي طعمه لم يلائمه . فكذلك أنتم تحملون علل أنفسكم على اللغة أو الكتابة أو غيرها وإنما الداء الدوي في أنفسكم ، والعلة القاتلة في سرائركم

(له بقية) عبد الوهاب عزام

المؤتمر الثامن

للجمعية الطبية المصرية بدمشق

للأستاذ عز الدين التنوخي

كاتب سر المجمع العلمي العربي

مطالب جليلة ، ورغائب جميلة ، وقلوبٌ كبيرة نبيلة ، إلى معارف شبيبةٍ مثقفــةٍ ، ومدارك كهولةٍ ممحصة ، وتجارب شيخوخة محنكة ، مع كثيرٍ من الخيرات والبركات ، قد حل دمشق أولئك جميعاً بحلول رجال المؤتمر الطبي الثامن فيها

أجل تنيرت بهم فى دمشق أحوال المجتمع والحياة ، فأصبح مؤتمرهم حديث الأندية ومَلهجَ الألسنة ، فلم يبق فى أحياء الفيحاء من لم يتحدث به من الرجال والنساء ؛ وتبدلت كذلك فنادق دمشق بأبهائها ومواندها وعاقام فوق صروحها من خُضر الأعلام المصرية الزاهرة بأنجمها الثلاثة وهلالها خفاقةً إلى جانب تلك الأعلام الشامية الزاهية بألوانها الأربعة وجمالها

ويا حبّذا يوم نشاهد هـــذه الأعلامَ العربيةَ بلغة أبنائها وبلدانها ، تَقر عيوننا بكثرة أنواعها وألوانها فيتماوجُ غداً على المؤتمرات العربية فى دمشق : العلم المصريُّ والشآميّ والعراقيّ والحجازيّ واليمانيّ والبرقي[1] والتونسي والجزائري والمراكشي ، وتمازج فيها لهجات العرب المنتشرة فى أقطار هــذه الأعلام ، فيتألف من مجموعها لحنٌ عربيٌ ندىٌّ يرتفع له حجاب السمع ، ويهتزُّ له شغاف القلب

بل قل ما أسعدَ ذلك اليومَ الأغرّ المحجّل الذى نرى فيـه للأقطار العربية المتحدة — والقاهرة (وَسْطِـها) يومئذٍ — علماً عربياً واحداً ، ونسمع لها فيه نشيداً عربياً واحداً ، كما نرى اليوم أبناء العالم الجديد لولاياتهم المتحدة الأمريكيـة لواءً وطنياً واحداً ، ويسمعون فى جميع أنحائها نشيداً قومياً واحداً !!

عيدان أظلا دمشقَ واجتمعا للدمشقيين فى يوم واحد ، وعلى صعيدٍ واحد : عيدُ المولد النبويّ ، وعيد المؤتمر الطبيّ ، فكأنما اندمجت بذلك ولادةُ هذه الأمة الدينية الغابرة ، بولادتها السياسية والدنيوية الحاضرة ! فليس اليوم فى الفيحاء إلا قلوب تخفق

(١) نسبة إلى برقة أى طرابلس الغرب

لذكرى ذلك النبيّ العربيّ العظيم الذى أحيا من هـذه الأمة مواتَها ، وجمع بعد صدع النوى شتاتَها ؛ وليس فيها اليوم إلا قلوبٌ طاهرة وعقول ناضجة ، تفكر فى إحياء هذه الفصحى المحبوبة وإزالة بلبلتها بتوحيد لغتها العلمية ، وإعادة عزتها بجمع كلمة أبنائها ؛ وليس فيها كذلك إلا حفـلات وولائم متتابعات فى قصر أمية والقصر الملكى ، وردهة محاضرات الجامعة ، وحديقة الأمة الرائعة ، ورياض الغوطة الفيحاء ، ورُبى بلودان الشماء

كذلك تبدّلت بالمؤتمر الثامن فى دمشق لهجـةُ صحافتها ، فذهلت بنشر أخباره جريدة (الأيام) عن صراحتها ، و(القبس) عن معارضتها و (الجزيرة) عن ميثاقها ، و (ألف باء) عن اعتـدالها ، و (فتى العرب) عن كفاحه ، و (الشعب) عن طماحه ، و (المضحك المبكى) عن ظريف هزله ومزاحه

إن هذا المؤتمر — وهو دليلُ يقظة الأمة العربية وبرهانُ رشدها الاجتماعى — ليرمزُ إلى شعورها بقوتها الكامنة اليوم ، وبقدرتها الفاعلة غداً ؛ ولذا ورد على من خَبر انعقاده فى دمشق ما خفف من بث قلبي الملتاع بتشتت هذه الأمة ، والمرتاع لمصيرها المظلم ، فشعرت لعمرى به شعور الأمل الحالم اغتبط بتوهم الحقيقة ، والهائم الحائم على مواقع القطر ابتهج برؤية أمنيَّته فلمع نور البشر فى غرَّته

ولِمَ لا أغتبط — ليت شعرى — ولا أبتهج ، أو لا تنلبنى نشوة الطرب ، وبعينى رأيتُ حسن ذلك الخيال مجسماً ، وبأذنى سمعت لحن ذلك الوصال مرنماً ، فى بعض مجامع المؤتمر[1] من عتاب الأحباب على التجنّر ، والأقرباء على الجفاء ، وجيرة المنازل والديار ، على تناسى حقوق الجوار ؛ والجوار — عمركَ الله — رحمٌ شابكة وصلة واشجة ؟ وكان مما استرقته الأذن من قول أديب شاميّ لطبيب مصرى وهو يعاتبه :

— « إن لم تنضموا إلينا فضمونا إليكم ، فما كان لحواجز الاستعمار أن تقوى على فصم عرى الجوار ؛ ألسنا نحن الشاميين نشارك إخواننا المصريين فى أفراحهم وأتراحهم ؛ أما كنا نفرح بالأمس لسعد ، ولفوز سعد ، وأنصار سعد ؛ ألم ترمض جوانحنا « سيشل » بذكراها ، وتقض مضاجعنا « دنشواى » بلواها ؛ أو لسنا نشارككم اليوم فى نعيم الواحى (الراديو) فنطرب أمثالكم لألحان أم كلثوم وعبد الوهاب ، مثلما نساهمكم فى العلوم والآداب

(١) على مائدة القصر الملكى — أوربان بالاس — فى ولية مديرية الصحة العامة .

بسماع الآيات والخطب والمحاضرات ؟

أو ليس علماؤكم في الأزهر والجامعة علماءنا ، وأدباؤكم من الكتاب والشعراء أدباءنا ، وتاريخ القطرين الشقيقين يكاد يكون واحداً ، ومطالعاتنا اليوم في الكتب والمجلات والصحف المنشرة ، تكاد تكون واحدة أيضاً ؟ أولا تعلم أن « الرسالة » يقرأها في دمشقنا هذه جمهرة العلماء والأدباء من الجنسين العنيف واللطيف على السواء ؟ »

وكان الطبيب المصري يجيبه على أسئلته هذه العذبة الرقيقة بقوله :

— بلى ، بلى ، ونحن لكم اليوم يا أخي كذلك ، وفوق ذلك

فهذا الحديث وأمثاله هو من بعض بركات المؤتمر المصري على العرب والعربية معاً . ومن أعظم تلك البركات المأثورة العزم على توحيد المصطلحات العلمية ؛ ففي جلستها الخطيرة بحث الخطباء في تاريخها وطرق وضعها ووسائل توحيدها ، وقد أشار كاتب سر المؤتمر الحكيم الدكتور عبد الواحد الوكيل في فاتحة الجلسة إلى أن الجمعية الطبية المصرية قد اهتمت في جميع مؤتمراتها السابقة بتوحيد المصطلحات الطبية ، فكان كل واضع يتعصب لوضعه فخرجنا من مؤتمراتنا كلها بدون فائدة ؛ ويجب الآن بعد تكوين المجمع اللغوي الملكي مع وجود المجمع العلمي الشامي أن تخرج هذه القضية من أيدينا إلى المجمعين

وقد شجعت جمعيتنا الدكتور محمد شرف على وضع معجمه وآزرته الحكومة فوزعه على الجمعيات اللغوية في الممالك العربية ، واقترحنا أن يجعل أساساً لأعمال المصطلحات الفنية ، وأن يضاف اليه في كل طبعة ما يتمحص منها ، وما يوضع من الألفاظ الجديدة فيتألف منه على الأيام معجمنا العربي المنشود

ثم بحث الخطباء في طرق الوضع وهي جمة ، فذكروا منها قبول الأسماء الأعجمية الواردة على أوزان عربية ، وليس في لغتنا ما يدل عليها ، وقبول النحت عند الضرورة في الأسماء الأعجمية المركبة ، وترجمة الأسماء التي لا يصح تعريبها ؛ وفي الأسماء العلمية المركبة من جنس ونوع قد يجب تعريب الجنس ، والنوع ذو المعنى مما يجب ترجمته لا تعريبه ؛ وأما الأسماء المنسوبة إلى الأعلام والأماكن فلا يجوز غير تعريبها ، إلى غير ذلك من الأساليب التي لا يجنح اليها إلا بعد التثبت من أن دواوين اللغة وكتب الطب والعلم لا تشتمل عليها ، فاذا ظفرنا بمثل كلمة التعايش لكلمة Symbiose وقد ذكرها الزمخشري ، لم نحتج الى نحتها أو ترجمتها أو تعريبها

وفي خلال المباحث حدث جدال قليل بين بعض الأطباء في الدفاع عن الأوضاع ، لا محل لتفصيله ، فانبرى لفصل الجدال بينهم الدكتور محجوب ثابت فرأينا منه خطيباً حلو النادرة ، طلق البادرة ، يتدفق في إيراداته وفكاهاته تدفق اليعبوب ، فيملأ الأسماع والقلوب ، ومما قاله :

إن العمل المشوش (المهرجل) لا يثمر أبداً ، والجمعيات الطبية العربية — وهي بحمد الله كثيرة في بلاد العرب — لا تثمر ولا تنتج إن لم تعمل كذلك بطريقة علمية منظمة ، فلو أن شعبة المصطلحات الفنية في الجمعية الطبية المصرية أخذت مثل كتاب : Medical terms dictionary وقسمت ألفاظه على عدد أعضاء الشعبة ، وفي آخر كل شهر يعرضون ما وضعوه على الجمعية مجتمعين ، وبعد تمحيصها وتحقيقها ، ترسلها الجمعية إلى مجمع اللغة الملكي بمصر ليحكم لها أو عليها ، فيعتبر حكمه عدلاً ، وقوله فصلاً

لا جرم أن من الانصاف والحصافة أن تجتمع كلمة الأقطار العربية على مجمع مصر الملكي لأنه يمثلها بالأعضاء الذين اختارهم من علمائها فاذا ما حكم بفصاحة لفظة فكأنما حكمت بها مجامع العرب كلها ، إذ هي ممثلة فيه ومحكمة في ناديه ؛ وأما مجامع اللغة في البلاد العربية فتعتبر روافد لمجمع مصر أو مؤتمرها اللغوي ، بما ترسله إليه من الأوضاع الجديدة ، وأعضاء المجمع المرسل يبينون لأخوانهم في مصر توجيهاتها ، وأسباب تعديلها وتفضيلها ، وبذلك يكون الانتاج خصيباً ، والرأي على الأغلب مصيباً ، وقديماً قيل : المرء قليل بنفسه كثير باخوانه ، ومجمع اللغة المصري ضعيف بواحده ، قوي بروافده

إن هذا المؤتمر الطبي الثامن لغزير النفع ، كثير الرجع على الأمة العربية ، فمن مناقبه الجليلة تمهيده السبيل إلى توحيد المصطلحات العلمية ، وتمهيده السبيل إلى تعليم الطب في المدارس الطبية باللغة العربية وبهما يتمهد السبيل إلى توحيد مناهج التربية والتعليم في بلاد العرب الذي هو لعمري من أقوى البواعث على توحيد الثقافة العربية المؤدي إلى توحيد الأمة العربية ، وإلى سيادتها في العالم بتعارفها وتآلفها وتحالفها :

فنحن في الشرق والفصحى بنو رحم
ونحن في الجرح والآلام إخوان

عز الدين التنوخي
كاتب سر المجمع العلمي

دراسات في الأدب الانجليزى

المذهب الواقعى وفن الدرامة

بقلم محمد رشاد رشدى

تتمة

الدرامة الانجليزية في عهد (دريدن)

من أهم ما يميز هذا العصر – منتصف وأواخر القرن السابع عشر – انتشار عادة غريبة ، هى محاولة حل كل شىء فى الوجود بواسطة العقل والتفكير ؛ وقد كان (بوالو) على حق حينما قال : (إن ديكارت قد ذبح الشعر) – على أن هذه العادة نشأت نتيجة لحضارة هذا العصر التى كانت قائمة على أكتاف الطبقة الوسطى – ونحن لانجد عصراً من عصور انجلترا كان نصيب الفلاح فيه أقل مما كان فى ذلك العصر ؛ مع أن مادة الفن الغزيرة تأتى دائماً من الفلاح حيث يعيش الرجل جنباً إلى جنب مع الطبيعة ، ويواجه صعابها وشؤونها كل ساعة وكل يوم فيتحايل على فهمها وإدراك أسرارها لابالعلم والتفكير بل بالدين والفن

فى هذا العصر لبست الدرامة ثوب النثر وأخذت (الكوميدية) تنقد عادات الناس وأحوالهم ، فهى تارة ساخرة وتارة مهذبة ناصحة ، وأخرى مستهترة متهتكة – على أن حوادثها وشخصياتها كانت كثيرة المطابقة للواقع ، حتى أن بعض الكتاب كان يبنى قصصه بناء تاماً على حوادث شخصية وقعت له أو لمن يعرفهم – وإن كان ثمة شىء ينقص من واقعية هذه (الكوميدية) فهو أن الكاتب كان كثير الحضور والظهور فى قصته – فهو يكاد يكون دائم الحديث على ألسنة أبطاله ، إما ناصحاً أو متفكهاً أو ناقداً أو جاعلاً هؤلاء الأبطال الذين لايعتون للشعر بسبب – وللحياة اليومية بكل سبب – يتحدثون بلغة هى أبعد ما تكون عن لغة الحديث العادية . أما (التراجيدية) فقد اتجهت اتجاهاً آخر كان فيه القضاء عليها ، فباتت تصور عالماً كله بطولة وحب وشجاعة ، وأضحى أبطالها آلات تتغنى بالفضيلة والطهر والمروءة فى كلام موزون مقفى ثقيل على الأذن لامرونة فيه ولا عبقرية ؛ وإنما كان هذا التصوير الخاطئ للحياة رد فعل للجو الاباحى المستهتر الذى كان يعيش فيه شعراء العصر وطبقته العليا – كما كانت الفضيلة والبطولة مثل الفروسية الأعلى فى القرون الوسطى – رد فعل لخلو الحياة فى ذلك العصر خلواً يكاد يكون تاماً من كل ما هو فاضل برئ

نهضة الدرامة فى القرن التاسع عشر : كانت حياة المسرح الانجليزى فى القرن الثامن عشر حياة خاملة لا نشاط فيها ولا جدة ، ولو أن نجماً أو نجمين سطعا فى سمائه ثم أفلا – وأعنى بهما (شريدان) و (جولد سمث) . والآن ونحن نريد أن نعالج نهضة القرن الفائت الحديثة يجدربنا أن نذكر شيئاً عن كل من الاتباعية (الكلاسزم) مذهب العهد المنقرض ، والابتداعية (الرومانتسزم) مذهب العهد الناهض الجديد . والحق أن كلا من المذهبين ينشأ عن وجهة نظر خاصة نحو الطبيعة البشرية . (فالاتباعية) تعتبر الانسان حيواناً حقيراً بطبيعته ، وتعتبر أنه لايستطيع أن يرقى وينهض إلا بالطاعة وتحكم النفس والعمل الدائم . ومن هذا كانت الطاعة وضبط النفس أظهر مميزات هذا المذهب ، وأنت تجدها تتجلى فى الفن (الاتباعى) فى دقة الأشكال والأوضاع ، وفى صقلها صقلا تاماً ، ثم فى خلوه من كل ما من شأنه التطرف والعنف . أما الابتداعية فتعتبر الانسان نبيلاً بطبيعته ، غير أن الأوضاع والأنظمة التى وضعها لنفسه هى التى حطت من قيمته وجعلته ذليلاً ضعيفاً . ومثل هذه الأنظمة المجتمع نفسه – والأخلاق – والقانون وغيرها – وإن عبارة (روسو) الافتتاحية فى كتابه العقد الاجتماعى : (الانسان حر بطبيعته ولكنه يجد نفسه مكبلاً بالقيود أينما كان) هى أول تعبير صادق (للابتداعية) وهى تتجلى فى الفن فى نبذ متعمد لكل القواعد والتعاريف ، وفى الاعتماد اعتماداً تاماً على قوة تعبير الفنان تعبيراً لا يقيده شكل ولا تحدده قاعدة – فان أراد الفنان (الابتداعى) أن يعالج الطبيعة لم يكن محتاجاً إلى الفلسفة تقوده وتهديه – كما كان يفعل شعراء وكتاب القرنين السابع والثامن عشر ، بل إن عليه أن يلاحظ ظواهرها فقط ، وأن يدون ملاحظاته دون تعديل ولا تهذيب

ومن هذا يتضح قرب المذهب (الابتداعى) من المذهب الواقعى – أعنى اتجاه (الابتداعية) اتجاهاً واقعياً قوياً بطبيعتها – واتصالها اتصالاً أساسياً بالحقيقة والواقع . وإن شعر الشاعر الانجليزى (وردسورث) ونظريته فى الأسلوب الشعرى – أن

يكون خليطاً من الأساليب والألفاظ التي يتحدث بها الناس في حياتهم العادية – لشاهدٌ على ذلك

ومما يشاهد في الدرامة في أواخر القرن التاسع عشر نبذ بعض كتابها – عن عقيدة وعمد – كل ما هو شعري نبذاً تاماً كاملاً . ولقد نشأ هذا عن رغبة أصحاب المذهب الجديد في إدخال طرق البحث العلميـة في الأدب ، إذ يجب أن تكون الملاحظة دقيقة لا تحيز فيها كما يجب أن يكون الملاحظ مختفياً لا أثر لوجهة نظره الخاصة ، بل يدوّن كل ما يلاحظـه تدويناً صادقاً واضحاً . وقد كتب (زولا) يقول : (لقد ترك الكيميائيون اليوم البحث عن الذهب – على أنهم لو اهتدوا يوماً الى صـنعه ، فسيكون دليلهم البحث العلمي الجديد ، وإني أشـبه نفسي بهم – فأنا أكدّ وأبحث محاولاً إتمام الطريقة الحديثة التي سـتهدينا ولا ريب شيئاً فشيئاً الى الحقيقة كاملة) ؛ على أن (زولا) نفسه كان يدرك أن الدرامة لأجل أن تكون فناً ، يجب أن تجمع عناصر أخرى غير عناصر العـلم . وهو يذهب في كتابة أخرى له الى أن للواقعية نفسها لوناً شعرياً فنياً لا يستطيع أحد إنكاره ، إذ يقول : « من يسـتطيع أن ينكر أن في حجرة انامل الفقير شعراً أكثر مما في قصور التاريخ جميعها ؟ »

ومن ظواهر هذه الواقعية العلمية التي ظلت تسود الدرامة منـذ نهضتها في أواخر القرن الماضي الى عهدنا الحالي ظاهرة التشاؤم والانقباض . والحق أن الواقع والتشاؤم يسيران دائماً جنباً الى جنب ، فالعقل الانساني يميل الى صبغ ما يخشى حدوثه بصبغة الحقيقة ، وما يرجوه وما يأمله بصبغة الحلم والخيال ؛ ولقد كانت آلهة الانسان الفطري – وقد كان يخافها كل الخوف – أقوى في مخيلته وأوضح شكلا من حوادث حياته اليومية

أقطاب النهضة الحديثة : أنتون تشيكوف

تؤكـد شخصـية (تشيكوف) وجو مسرحياته الخاص وأسلوبها أنه أول الكتاب الحديثين الذي حقق المثـل الأعلى للواقعية ؛ فتشاؤمه ونظرته الخاصة نحو الحياة تبدو كأنها ليست نظرة شخصية خاصة به بل نظرة أهل عصره العامة – نظرة الروسي البائس الفقير الذي كان يعيش في روسيا في القرن الماضي . فأنت لا تجد (لتشيكوف) دعاية خاصة يدعو بها أو عقيدة يدافع عنها ، بل هو يصور الحيـاة كما يراها ، هادئاً قابعاً مختفياً وراء صورته . . .

هنريك ابسن :

كذلك مسرحيات هذا الكاتب النرويجي هي مثل أعلى للواقعية الحديثة ؛ ولو أنها تختلف كثيراً عن كتابات (تشيكوف)، ولقد تبدو قصصه – لأول نظرة – قصصاً تعالج شـئوناً اجتماعية مثل الزواج وتحرير المرأة وغير ذلك ؛ ولقد يتبادر إلى ذهن القارئ أنه بزوال هذه الشؤون وحلها ستزول قيمة القصص وتقل أهميتها . على أن هذا الزعم خاطئ ، فروح (إبسن) ليست بروح المصلح الاجتماعي فحسب ، بل هي قبل كل شيء روح شاعر كان إذا ما فكر في مشكلة اجتماعية ملـكت عليـه كل حواسه فأصبح لا يرى للعيش قيمة إذا هو لم يهتد الى حلها وإزالة خطرها

ومسرحيات (برنارد شو) تعالج هي الأخرى موضوعات اجتماعية ؛ على أن الفرق بين الكاتبين عظيم ، فمعالجة (شـو) لموضوعاته هي معالجة علمية بحتة ، أعني أنها لا تهمه شخصياً بل اجتماعياً – أما مع (إبسن) فهي كما قدمت موضوعات شخصية قبل أن تكون اجتماعية أو عالمية – موضوعات تهمه مباشرة كأنما كان يتعلق بها كيانه ووجوده . وقد كتب (إبسن) مرة يقول : « كل ما أكتبه له علاقة وطيدة بكل ما أحيا خلاله ؛ وفي كل قصة أو قصيدة أكتبها أبغي تحرير نفسي وصفاءها » . ومن الجلي أن هذا يختلف كثيراً عن تفكير الكاتب الارلندي الذي يهمه تحرير انجلترا قبل تحرير نفسه هو ؛ وقد كان تحرير النرويج يهم (أبسن) أيضاً ، على أن الأهمية لم تأت مباشرة ، بل أتت عن طريق نفسه وروحه . ولقد يبدو من حديثنا هذا أن مسرح (شو) أكثر مطابقة للواقع وللروح العلمية الجديدة من مسرح (إبسن) ، على أن هـذا خطأ وعكسه صحيح . والسبب في ذلك هو أن الناس يختلفون في آرائهم أكثر مما قد يختلفون في مشاعرهم وإحساساتهم – (فبرنارد شو) الذي يعتمد اعتماداً كلياً على الفكرة والرأي ، والذي يعيب مسرحياته من الجهة الواقعية كثرة ظهور المؤلف في القصة – سيهرم ويذوي عندما تهرم الموضوعات التي يعالجها وتموت – أما (ابسن) الذي لا يعتمد على الفكرة اعتماد (شو) ، والذي لا يجعل من أبطال مسرحه ألاعيب ودمى لا قيمة لها إلا اظهار الفكرة والدعاية لها ، بل يجعل منها أشخاصاً آدميين نافذاً الى أعماق نفوسهم – مظهراً منها ما قد خفي ومضيئاً ما قد أظلم أو قتم – فسيظل حياً ما دام الانسان والنفس البشرية حية على ما هي عليه

ويرينا (أبسن) أن أعلى أنواع الواقعية في الدرامة كما في كل فن آخر – إنما يعتمد على الخيال القوي الوثاب الذي يستطيع أن يعالج مسائله الشخصية معالجة يفهمها الجميع وتصل إلى كل القلوب حتى لقد تبدو لها وكأنها مسائلها هي لا مسائل الشاعر، ونبضاتها هي قد سجلت على الورق لا نبضات الكاتب النرويجي أو الروسي أو الإنجليزي؛ وعلى هذا في معنى أدق مما كان يقصده الفيلسوف الإغريقي (أرسطو) تكون شخصيات مثل هذه الدرامة (مثلنا تماماً)

فليست الواقعية وليدة بحث علمي أو مذهب أو عصر خاص، بل هي جزء لا ينفصل عن الشاعرية الفذة والخيال القوي الذي يصور لك ما يرسمه تصويراً حياً قوياً، يجعلك تراه وتؤمن به وتشترك فيه حساً وعاطفة وفكراً

محمد رشاد رشدي
بكالوريوس بامتياز في الأدب الإنجليزي

٧ – شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

ومما يدل على أن أبا العتاهية كان يحمل نفسه من أسباب اللهو ما ليس من سجيتها في الزهد لأغراض له في ذلك – ما رواه صاحب الأغاني قال: حدثني أحمد بن عبيد الله بن عمار. قال حدثني ابن أبي الدنيا قال حدثني الحسين بن عبد ربه قال حدثني علي بن عبيدة الريحاني قال حدثني أبو الشمقمق أنه رأى أبا العتاهية يحمل زاملة المخنثين، فقلت له: أمثلك يضع نفسه هذا الوضع مع سنك وشعرك وقدرك؟ فقال له: أريد أن أتعلم كيادهم، وأتحفظ كلامهم

وهو في أخذه بما كان يأمره به الرشيد منه ليتقي به حبسه وسجنه إنما كان يأخذ بالتقية التي يأخذ بها الشيعة، وقد كان على ما سيأتي من رجالهم، فجرى بذلك مع الرشيد كما جرى به مع الهادي والمهدي، وكان إذا خرج من سجنه، وجرى على ما يهواه منه، مضى معه كأن لم يكن هناك شيء يخفيه منه في دخيلة نفسه ومدحه بشعره أحسن مدح، وأخذ عليه منه جزيل صلاته وجوائزه، حتى إذا غلبته نفسه نبا عليه، وأخذ في زهده ونسكه، وأخذ الرشيد في الغضب عليه وسجنه وحبسه، وأبو العتاهية رابح في الحالين، قاض لنفسه غرضها من مال العباسيين، ولمذهبه السياسي الذي سنشرحه غرضه من ذم دنياهم، والنعي على ما في دولتهم من فساد ديني وسياسي واجتماعي.

وقد أخبر ابن أبي العتاهية أن الرشيد لما أطلق أباه من الحبس لزم بيته وقطع الناس، فذكره الرشيد فعرف خبره، فقال: قولوا له صرت زير نساء، وحِلْس بيت! فكتب إليه أبو العتاهية:

بَرِمتُ بالناس وأخلاقهم ... فصرت أستأنس بالوَحْدَه
ما أكثر الناس لعمري وما ... أقلهم في منتهى العَدَّه

ثم قال: لا ينبغي أن يمضي شعر إلى أمير المؤمنين ليس فيه مدح له، فقرن هذين البيتين بأربعة أبيات مدحه فيها وهي:

عاد لي من ذكره نَصَبُ ... فدموعُ العين تنسكبُ
وكذاك الحبُّ صاحبُه ... يعتريه الهمُّ والوَصَبُ
خيرُ من يُرجى ومن يَهَبُ ... مَلِكٌ دانت له العرب
وحقيق أن يُدانَ له ... من أبوه للنبي أب

ولما عقد الرشيد ولاية العهد لبنيه الثلاثة: الأمين والمأمون والمؤتمن، قال أبو العتاهية:

رَحَلْتُ عن الرَّبع المحيل قُعودي ... إلى ذي زُحُوفٍ جَمَّةٍ وجنود
وراعٍ يراعي الليل في حفظ أمة ... يدافع عنها الشر غير رَقود
بألوية جبريلُ يقدم أهلها ... ورايات نصر حوله وبُنُود
تجافى عن الدنيا وأيقن أنها ... مفارقة ليست بدار خلود
وشدّ عُرى الإسلام منه بفتية ... ثلاثة أملاك وُلاةِ عهود
هُمُ خير أولاد لهم خير والد ... له خير آباء مضت وجدود
بنو المصطفى هارونَ حول سريره ... فخيرُ قيامٍ حوله وقُعود

تقلّب ألحاظ المهابة بينهم ... عيونُ ظباء فى قلوب أسود
خدودهم شمس أتت فى أهلة ... تبدت لراءٍ فى نجوم سعود

فوصله الرشيد بصلة ما وصل مثلها شاعراً قط

ثم انقضى عهد الرشيد وجاء بعده عهد ابنه الأمين ، وحصل ما حصل من الخلاف بينه وبين أخيه المأمون ، فاضطرب أمر الدولة ، ووجد أبو العتاهية من ذلك ما يساعده على المضى فى سبيله من الزهد ، واستخدام شعره فى دعوة الأمة إليه ، وتهوين أمر الدنيا التى فتنوا بها عن الآخرة ، ولم يعد يقول الشعر فى التغزل والمجون وما إليهما ؛ ولكن لم يقطع صلته بملوك العباسيين ولم يتحرج من مدحهم الحين بعد الحين طمعاً فى أموالهم . وسنتكلم بعد فى أمر ذلك الزهد

حدث عكرمة عن شيخ له من أهل الكوفة قال : دخلت مسجد المدينة ببغداد بعد أن بويع الأمين محمد بسنة فاذا شيخ عليه جماعة وهو ينشد :

لهفى على وَرَق الشباب ... وغصونه الخُضْر الرِّطاب
ذهب الشباب وبان عني (م) غير منتظر الاياب
فلأبكين على الشبا ... ب وطيب أيام التصابى
ولأبكين من البِلَى ... ولأبكين من الخضاب
إنى لآمل أن أخلّـ ... ـد والمنية فى طِلابى

قال فجعل ينشدها وإن دموعه لتسيل على خديه ، فلما رأيت ذلك لم أصبر أن ملت فكتبتها ، وسألت عن الشيخ ، فقيل لى : هو أبو العتاهية

وحدث حبيب بن الجهم النميرى قال : حضرت الفضل بن الربيع متنجزاً جائزتى وفرضى ، فلم يدخل عليه أحد قبلى ، فاذا عون حاجبه قد جاء فقال : هـذا أبو العتاهية يسلم عليك ، وقد قدم من مكة ، فقال : أعفنى منـه الساعة يشغلنى عن ركوبى ، فخرج إليه عون فقال : إنه على الركوب إلى أمير المؤمنين ، فأخرج من كمه نعلاً عليها شراك مكتوب عليه :

نعل بعثت بها ليلبسها ... قَرْمٌ بها يمشى إلى المجد
لو كان يصلح أن أشرّكها ... خدّى جعلت شراكها خدى

ثم قال لعون قل له إن أبا العتاهية أهداها اليك ، فدخل بها عليه فقال له احملها معنا ، فلما دخل على الأمين أخبره بها ، وأنه رأى أن أمير المؤمنين أولى بلبسها لما وصف به لابسها ، فقرأ الأمين البيتين فقال : أجاد والله وما سبقه إلى هذا المعنى أحد ، هبوا له عشرة آلاف درهم ، فأخرجت والله فى بدرة وهو راكب على حماره ، فقبضها وانصرف

ولما تولى المأمون بعد أخيه الأمين حسن حال أبى العتاهية فى عهده ، وكان المأمون أحسن حالاً من الملوك العباسيين قبله ، فقرب أبا العتاهية منه ، وأكثر من بره وصلته والاحسان اليه بما لم يفعل مثله معه سلفه ؛ ومن ذلك أن أبا العتاهية كان يحج كل سنة ، فاذا قدم أهدى إلى المأمون برداً ومطرفاً ونعلاً سوداء ومساويك أراك ، فيبعث اليه بعشرين ألف درهم

ودخل عليه مرة فأنشده :

ما أحسن الدنيا وإقبالها ... إذا أطاع الله من نالها
من لم يُواسِ الناس من فضلها ... عرّض للأدبار إقبالها

فقال له المأمون : ما أجود البيت الأول ! فأما الثانى فما صنعت فيه شيئاً ، الدنيا تدبر عمن واسى منها أو ضن بها ، وإنما توجب السماحة بها الأجر ، والضن بها الوزر . فقال : صدقت يا أمير المؤمنين ، أهل الفضل أولى بالفضل ، وأهل النقص أولى بالنقص ، فأمر المأمون بأن يدفع اليه عشرة آلاف درهم لاعترافه بالحق . فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كم غافل أودَى به الموت ... لم يأخذ الأهبة للفوت
من لم تزلْ نعمته قبـله ... زال عن النعمة بالموت

فقال له : أحسنت ، الآن طيبت المعنى ، وأمر له بعشرين ألف درهم

فاذا رأينا المأمون بعد ذلك يزهد فى هذا الملك العظيم لأهله من بنى العباس ، ويؤثر به من بعده الامام عليا الرضى من آل على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فيزوجه بنته أم حبيب ، ويجعله ولى عهده ، ويضرب اسمه على الدينار والدرهم ، فان لشعر أبى العتاهية أعظم الأثر فى ذلك ؛ وهذه هى النتيجة والثمرة التى جاهد به من أجلها ، فقد سعى فى تزهيد الناس فى كل أسباب الدنيا والتكالب عليها ، ليزهد العباسيين فى التكالب على هـذا الملك

الذى علكونه منها ، ويعودوا به إلى سيرته الأولى ، فيتولاه أصلح الناس له ، ولا يستأثر به أحد على غيره ؛ وهذا هو ما فعله المأمون مع على الرضا ، فقد كان بمدينة مرو وفيها على ، فاستحضر أولاد العباس الرجال منهم والنساء ، وكان عددهم ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين الكبار والصغار ، واستدعى علياً فأنزله أحسن منزلة ، وجمع خواص الأولياء ، وأخبرهم أنه نظر فى أولاد العباس وأولاد على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فلم يجد فى وقته أحداً أفضل ولا أحق بالأمر من على الرضا ، فبايعه وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام ؛ وقد قام بسبب ذلك تلك الفتنة المعروفة بينه وبين عمه إبرهيم بن المهدى ، فقضت على تلك الفكرة الصالحة ، ومضى العباسيون فى أمرهم إلى أن ملكهم خولهم وجنودهم من الترك وغيرهم ، وانتهى أمرهم بتلك النكبة التى انتهى بها ، ولا يعلم إلا الله ماذا كان يعود من الخير على المسلمين لو تم للمأمون من ذلك ما أراده ، ورجع أمر المسلمين إلى ما كانوا عليه من الشورى فى عهد النبوة والخلافة

وقد بلغت سن أبى العتاهية فى عهد المأمون تسعين سنة ، وأدركه أجله فى تلك السن سنة ٢٠٩ هـ وقيل سنة ٢١١ هـ

وروى محمد بن أبى العتاهية قال : آخر شعر قاله أبى فى مرضه الذى مات فيه :

إلهى لا تعذبنى فإنى ... مقرٌّ بالذى قد كان منى
فمالى حيلة إلا رجائى ... لعفوك إن عفوتَ وحسن ظنى
وكم من زلة لى فى الخطايا ... وأنت علىَّ ذو فضل ومَنّ
إذا فكرتُ فى ندمى عليها ... عضضتُ أناملى وقرعتُ سنى
أجنّ بزهرة الدنيا جنوناً ... وأقطع طول عمرى بالتمنى
ولو أنى صدقتُ الزهد عنها ... قلبتُ لأهلها ظهر المجنّ
يظن الناس بى خيراً وإنى ... لشر الخلق إن لم تعف عنى

ثم أمر أن يكتب على قبره :

أذن حىّ تسمعى ... إسمعى ثم عى وعى
أنا رهنٌ بمضجعى ... فاحذرى مثل مصرعى
عشت تسعين حجة ... أسلمتنى لمضجعى
كم ترى الحىّ ثابتاً ... فى ديار التزعزع
ليس زادٌ سوى التقى ... فخذى منه أو دعى

عبد المتعال الصعيدى

٢٩ – محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

تتمة الحوار

فهذه الأنهار عديدة وقوية ومنوعة ، منها أربعة رئيسية أعظمها وأقصاها نحو الخارج هو ذلك المسمى بالاقيانوس oceanus الذى يجرى فى دائرة حول الأرض ، ويسير فى الاتجاه المضاد له نهر أشيرون Acheron الذى يجرى تحت الأرض فى ربوع جدباء حتى يصب فى بحيرة أشيروزيا Acherusian Lake : هذه هى البحيرة التى تذهب إلى شواطئها أرواح الدهماء حين يدركهم الموت ، حيث يلبثون أجلاً مضروباً ، يكون طويلاً لبعضها قصيراً لبعضها الآخر ، ثم تعود ثانية لتحل فى جسوم الحيوان . وينبع النهر الثالث فيما بين ذينك النهرين ، وهو يصب على مقربة من منبعه فى منطقة شاسعة من النار ، حيث يكوّن بحيرة أوسع من البحر الأبيض المتوسط ، يغلى فيها الماء والطين ، ثم يخرج منها عكراً مليئاً بالوحل ، فيدور حول الأرض حتى يبلغ فيما يبلغ من مواضع أطراف بحيرة أشيروزيا ، ولكنه لا يختلط بمائها ، وبعد أن يتحوى فى عدة ثنايا حول الأرض ، يغوص إلى جهنم أدنى مما كان مستوى . هذا هو نهر بيرفليجثون Pyriphlegethon — كما يسمى — الذى يقذف فى كل مكان بفوارات من النار . ويخرج النهر الرابع فى الجهة المقابلة ، ويسقط أول ما يسقط فى منطقة همجية متوحشة ، تصطبغ كلها باللون الأزرق القاتم الذى يشبه حجر اللازورد ، وهذا النهر هو ما يسمى نهر ستيجيا Stygian River وهو يصب فى بحيرة ستكس Styx التى يكوّنها ، وبعد أن يصب فى البحيرة ويستمد لمائه قوى عجيبة ، يجرى تحت الأرض ، دائراً حولها فى اتجاه يضاد نهر بيرفليجثون ، ويلتقى به فى بحيرة أشيروزيا من الجهة المقابلة ، ولا يختلط ماء هذا النهر أيضاً بغيره ، بل يجرى فى دائرة ويتدفق فى جهنم ، مقابلاً لنهر بيرفليجثون ويسمى هذا النهر كوكيتوس Cocytus كما يقول الشاعر

تلك هى طبيعة العالم الآخر ، فلا يكاد الموتى يصلون إلى حيث تحملهم شياطينهم وحداناً حتى يقضى فى أمرهم بادئ ذى

بدء ، إن كانوا أنفقوا الحياة فى الخير والتقوى أم لا ، فمن ظهر منهم أن حياتهم لم تكن لا إلى الخير ولا إلى الشر ، فانهم يذهبون الى نهر أشيرون ، ويركبون ما يصادفونه من وسائل النقل ، فيُحملون فيها الى البحيرة حيث يقيمون ويطهرون من أوزارهم ويعانون جزاء ما أساءوا به للناس من أخطاء ، ثم يُغتفر لهم وينالون جزاء وفاقاً عما قدمت أيديهم من خير . أما أولئك الذين لا يرجى لهم اصلاح ، فيما يظهر ، لفداحة ما أجرموا ، أولئك الذين أتوا من الآثام المنكرة شيئاً كثيراً ، كتدنيس المعابد وازهاق الأنفس ازهاقاً خبيثاً عنيفاً أو ما أشبه ذلك — أولئك يلقى بهم فى جهنم لا يخرجون منها أبداً ، فهى لهم أنسب مصير . أما هؤلاء الذين أجرموا اجراماً لا يجل عن العفو على هوله — أولئك الذين قسوا على والد أو والدة مثلاً وهم فى سورة من الغضب ثم أخذهم الندم مدى ما بقى من حياتهم ، أو الذين قتلوا نفساً مدفوعين بظروف تخفف من جرمهم — هؤلاء يغمسون فى جهنم ، ولزام عليهم أن يَصْلوا عذابها حولاً ، وفى نهايته تقذف بهم الموجة : أما قاتل النفس فتقذف به إلى مجرى نهر كوكيتس ، وأما قتلة الآباء والأمهات فالى نهر بيرفليجيثون — فيحملون إلى بحيرة أشيروزيا حيث يرفعون عقائرهم صائحين بضحاياهم القتلى ، أو بمن نالتهم منهم اساءة ، عسى أن تأخذهم بهم رحمة فيتقبلوهم ويسمحوا لهم بالخروج من النهر إلى البحيرة . فان نالتهم الرحمة من أولئك ، خرجوا ونجوا من عذابهم ، وان لم يرحموهم حملوا إلى جهنم مرة أخرى ، ومنها إلى الأنهار ، وهكذا دواليك حتى يظفروا بمن أساءوا إليهم بالرأفة ، فهكذا قضى عليهم قضاتهم . أما من امتازت حياتهم بالتقوى ، فأولئك يطلق سراحهم من هذا السجن الأرضى ، فينطلقون إلى عليين حيث يقيمون فى مقامهم الطاهر ويعيشون على تلك الأرض وهى أنقى ؛ وأما أولئك الذين طهروا أنفسهم حقاً بالفلسفة فهم يعيشون منذ الآن متحللين من أجسادهم فى منازل أجمل من تلك ، يعجز عنها الوصف ويضيق الوقت أن أحدثكم عنها

إذن ياسمياس ، وقد رأيت هذه الأشياء كلها ، فماذا ينبغى لنا ألا نفعله لكى نظفر بالفضيلة والحكمة فى هذه الحياة ؟ ألا إن الجزاء لجميل ، والأمل لعظيم

لست أريد أن أقطع بصدق الوصف الذى قدمته عن الروح ومنازلها — فما ينبغى لرجل ذى فطنة أن يقطع بهذا ، ولكنه فى رأيى حقيق ، وقد اتضح خلود الروح ، أن يجازف بالظن ، لا خاطئاً فيه ولا عابثاً ، أن يكون الصواب شيئاً كهذا ، وانه منه لظن عظيم ، ولا بد له أن يسرى عن نفسه بمثل هذه الكلمات ، فمن أجلها أطلت حكايتى ؛ ولهذا أوصيكم ألا يأخذ أحد على روحه الأسى ، مادام قد طرح زينة الجسد ولذائذه ، واعتبرها غريبة عنه ، بل هى أدنى إلى إيذائه بما تجر وراءها من أثر ، ومادام فى هذه الحياة قد تعقب لذة المعرفة ، إلا أن أولئك الذين يزينون أرواحهم بلآلئها الصحيحة ، وهى : الاعتدال والعدل والشجاعة والنبل والحق — أولئك تكون أرواحهم ، إذا ما ازينت بتلك اللآلئ ، مهيأة للرحيل إلى العالم السفلى حين يدركها الموت . فأنتم ، أى سمياس وسيبيس ، وياسائر الرجال ، سترحلون فى وقت قريب أو بعيد . أما أنا ، فها هوذا ينادينى صوت القدر على حد قول شاعر المأساة ، ولابد أن أجرع السم عما قريب ، ويجمل بى فيما أظن أن أذهب أولا إلى الحمّام حتى لا يشق على الناس غسل جثمانى بعد موتى

فلما أن فرغ من الحديث ، قال كريتون : أعندك ما تشير علينا به ياسقراط ؟ ألديك ما تقوله عن أطفالك ، أو عن أى شىء آخر نستطيع أن نعينك فى أمره ؟

فقال : ليس عندى شىء بعينه : غير أنى أحب لكم ، كما كنت أحدثكم دائماً ، أن تنظروا فى أنفسكم ، فذلك فضل تستطيعون أن تواصلوا أداءه من أجلى ، وهو أيضاً فضل منى لكم . ولا ينبغى لكم أن تكونوا أدعياء فيما تقولون ، لأنكم لو جهلتم أنفسكم وصدفتم عما أوصيتكم به ، وليست هذه أول مرة أوصيكم فيها ، فلن تجدى عليكم حماسة الادعاء شيئاً

قال كريتون : سنبذل جهدنا ، ولكن كيف تريدنا أن نواريك الثرى ؟

على أى وجه تشاءون ، غير أنه لا بد لكم أن تمسكوا بى ، وأن تحذروا فلا ألوذ منكم بالفرار . ثم التفت إلينا وأضاف باسما : لا أستطيع أن أقنع كريتون أننى سقراط ذاته الذى كان يتحدث ويوجه الحوار ، فهو يحسبنى سقراط الآخر الذى سيشهده بعد حين جثة هامدة — وهو يسائل : ماذا عسى دفنى أن يكون ؟ مع أنى قد أفضت فى الحديث محاولاً إقامة الدليل على أنى مخلفكم حين أجرع السم ، حيث أتوجه إلى لذائذ أصحاب النعيم — ويظهر أنه لم يكن لحديثى هذا الذى سرّيت به عن أنفسكم وعن نفسى ، أثر فى كريتون ، لذلك أريدكم أن تكونوا لى الآن عنده كفلاء ، كما كان هو كفيلى عند الحاكمة :

على أن يختلف وعدكم عما وعد ، فقد كان كفل للقضاة أنى سأبقى ، ولكن عليكم أن تكفلوا له أنى غير باق ، بل إنى ظاعن راحل ، فتقل بهذا لوعته عند موتى ، ولا يحزنه أن يرى جثمانى يحترق أو يُهال عليه التراب . إنى لا أحب له أن يتحسر على جدى العاثر ، بأن يراع لدفنى ، فتأخذه الحيرة : على هذا النحو نكفن سقراط ، أو هكذا نشيعه إلى القبر أو نواريه التراب . إن الأقوال الباطلة ليست شراً فى ذاتها فحسب ، بل إنها لتصيب الروح بشرها . لاتحزن إذن ، أى عزيزى كريتون ، وقل إنك لا تقبر منى إلا الجثمان ، فاقبره على النحو الذى جرى به العرف ، وكما تفضّل أن يكون

ولما فرغ من هذه العبارة ، نهض ودخل غرفة الحمام ، يصحبه كريتون ، الذى أشار إلينا بأن ننتظر ، فانتظرنا نتحدث ونفكر فى أمر الحوار وفى هول المصاب . لقد كنا كمن ثكل فى أبيه ، وأوشكنا أن نقضى ما بقى من أيامنا كالأيتام ، فلما تم اغتساله جىء له بأبنائه — (وكانوا طفلين صغيرين ويافعاً) كما وفدت نساء أسرته ، فحادثهن وأوصاهن ببعض نصحه ، على مسمع من كريتون ، ثم صرفهن وعاد الينا

ها قد دنت ساعة الغروب ، فقد قضى داخل الحمام وقتاً طويلا ، وعاد بعد اغتساله فجلس إلينا ، ولكنا لم نفض فى الحديث ، وما هى إلا أن جاء السجان ، وهو خادم الأحد عشر ، ووقف إلى جانبه وقال : لست أتهمك يا سقراط بما عهدته فى غيرك من الناس ، من سورة الغضب ، فقد كانوا يثورون ويصيحون فى وجهى حينما آمرهم باجتراع السم ، ولم أكن إلا صادعاً بأمر أولى الأمر . أما أنت فقد رأيتك أنبل وأرق وأفضل ممن جاءوا قبلك إلى هذا المكان ، فليس يخامرنى شك أنك لن تنقم علىّ ، فليس الذنب ذنبى ، كما تعلم ، إنما هى جريرة سواى . وبعد ، فوداعاً ، وحاول أن تحتمل راضياً ما ليس من وقوعه بد ، وإنك لعليم فيمَ قدومى إليك . ثم استدار فخرج منفجراً بالبكاء

فنظر إليه سقراط وقال : لك منى جميل بجميل . فسأصدع بما أمرتنى به . ثم التفت إلينا وقال : يا له من فاتن ! إنه ما انفك يزورنى فى السجن ، وكان يحادثنى الحين بعد الحين ، ويعاملنى بالحسنى ما وسعته . انظروا إليه الآن كيف يدفعه فضله أن يحزن من أجلى فلزام علينا يا كريتون أن نفعل ما يريد . مر أحداً أن يجىء بالقدح إن كان قد تم إعداد السم ، وإلا فقل للخادم أن يهيئ شيئاً منه

فقال كريتون : ولكن الشمس لا تزال ساطعة فوق التلاع ، وكثير ممن سبقوك لم يجرعوا السم إلا فى ساعة متأخرة بعد إنذارهم . إنهم كانوا يأكلون ويشربون وينغمسون فى لذائذ الحس ، فلا تتعجل إذن ، اذ لا يزال فى الوقت متسع

فقال سقراط : نعم يا كريتون ، لقد أصاب من حدثتنى عنهم فيما فعلوا ، لأنهم يحسبون أن وراء التأجيل نفعاً يجنونه ؛ وانى كذلك لعلى حق فى ألا أفعل كما فعلوا ، لأننى لا أظن أنى منتفع من تأخير شراب السم ساعة قصيرة . انى بذلك إنما أحتفظ وأبقى على حياة قد انقضى أجلها فعلاً ، انى لو فعلت ذلك سخرت من نفسى . أرجو إذن أن تفعل بما أشرت به ولا تعص أمرى

فلما سمع كريتون هذا ، أشار إلى الخادم فدخل ، ولم يلبث قليلاً ان عاد يصحبه السجان يحمل قدح السم ، فقال سقراط : أى صديق العزيز ، انك قد مرنت على هذا الأمر ، فأرشدنى كيف أبدأ . فأجاب الرجل : لا عليك إلا أن تجول حتى تثقل ساقاك ثم ترقد ، فيسرى السم . وهنا تناول سقراط القدح فحدق فى الرجل بكل عينيه ، يا أشكراتس ، وأخذ القدح جريئاً وديعاً لم يُرَع ولم يمتقع لون وجهه . هكذا تناول القدح وقال : ما قولك إذا سكبت هذا القدح لأحد الآلهة ؟ أفيجوز هذا أم لا يجوز ؟ فأجاب الرجل : اننا لا نُعِدُّ يا سقراط إلا بمقدار ما نظنه كافياً فقال : انى أفهم ما تقول ، ومع ذلك فيحق لى بل يجب على أن أصلى للآلهة أن توفقنى فى رحلتى من هذا العالم إلى العالم الآخر — فلعل الآلهة تهبنى هذا ، فهو صلاتى لها . ثم رفع القدح إلى شفتيه وجرع السم حتى الثمالة رابط الجأش مغتبطاً ، وقد استطاع معظمنا أن يكبح جماح حزنه حتى تلك الساعة ، أما وقد رأيناه يشرب السم ، وشهدناه يأتى على الجرعة كلها ، فلم يَعُدْ فى قوس الصبر منزع ، وانهمر منى الدمع مدراراً على الرغم منى ، فسترت وجهى ، وأخذت أندب نفسى ، حقاً انى لم أكن أبكيه بل أبكى بغيتى فيه حين أفقد مثل هذا الرفيق . ولم أكن أول من فعل هذا ، بل أن كريتون ، وقد ألفى نفسه عاجزاً عن حبس عبراته ، نهض وابتعد ، فتبعته ، وهنا انفجر أبولودورس الذى لم ينقطع بكاؤه طول الوقت ، بصيحة عالية وضعتنا جميعاً موضع الجبناء ، ولم يحتفظ بهدوئه منا إلا سقراط ، فقال : ما هذه الصرخة العجيبة ؟ لقد صرفت النسوة خاصة حتى لا يسئن صنيعاً على هذا النحو ، فقد خبّرت أنه ينبغى للانسان أن يسلم الروح فى هدوء ، فسكوناً وصبراً .

فلما سمعنا ذلك ، اعترانا الخجل وكفكفنا دموعنا ، وأخذ سقراط يتجول حتى بدأت ساقاه تخوران — كما قال — ثم استلق

زهرتى

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

قد تصوَّحتِ عند شرخ الشباب ... زهرتى بغتةً فجلَّ مصابى

زهرتى قد جاء الربيع بما ازدا ... ن به من نبتٍ ومن أعشاب

ولقد قام مهرجان على الأر ... ض جميعاً بطاحها والهضاب

لعزيزٌ علىّ ألا تكونى ... طاقةً فوق الكلأ المعشاب

نبت الزهر كله فلماذا ... أنتِ يا زهرتى بجوف التراب

***

ضقتِ بالقبر فاخرجى من ظلام الـ ... أرض للنور فوقها والرحاب

أخرجى من جوف الثرى وابسمى لى

عن رضًى أو تجهَّمى للعتاب

أخرجى من جوف الثرى من جديد

واسحرينى بلحظك الخلَّاب

وأعيدى إلىّ أسعدَ عهدٍ ... كنتُ فيه وذاك عهدُ شبابى

قرّبينى إذا أردتِ سلامى ... واصرمينى إذا أردتِ خرابى

وافتحى العينَ والمسامعَ دونى ... واسمعى شدوى وانظرى إعجابى

***

على ظهره ، كما أشير له أن يفعل ، وكان الرجل الذى ناوله السم ينظر إلى قدميه وساقيه حيناً بعد حين ، ثم ضغط بعد هنيهة على قدمه بقوة وسأله هل أحس فأجاب أن لا ، ثم ضغط على ساقه وهكذا صعد ثم صعد ، مشيراً لنا كيف أنه برد وتصلب ، ثم لمس سقراط نفسه ساقيه وقال : ستكون الخاتمة حين يصل السم الى القلب . فلما أخذت البرودة تتمشى فى أعلى فخذيه كشف عن وجهه ، إذ كان قد دثر نفسه بغطاء ، وقال : (وكانت هذه آخر كلماته) إننى يا كريتون مدين بديك لاسكليبيوس Asclepius فهل أنت ذاكر أن ترد هذا الدين ؟ ولم يكن لهذا السؤال من جواب ؛ وما هى إلا دقيقة أو دقيقتان حتى سُمعت حركة ، فكشف عنه الخدم ، وكانت عيناه مفتوحتين ، فأقفل كريتون فمه وعينه

هكذا يا اشكراتس قضى صديقنا الذى أدعوه بحق أحكم من قد عرفت من الناس ، وأوسعهم عدلاً وأكثرهم فضلا

تم الحوار ... زكى نجيب محمود

أنا يا زهرتى دعوتك للحبِّ (م) مراراً فلم تردّى جوابى

لا تقولى إنى هلكتُ فلا تر ... جُ لميتٍ ذاق الردى من مآب

أنتِ تحيين فى فؤادى وعينى ... ودمى فائراً وفى أعصابى

ايقظى من هذا الرقاد فإن الشـ

ـمسَ قد ذرّت من وراء الحجاب

أنتِ للحب والغرام بوجه الـ ... أرض لا للرقاد تحت التراب

أنتِ لا تخلقين يا زهرتى أن ... تختفى فى غياهب الأحقاب

***

يتهاوى دمعُ الأسى من عيونى ... كشهابٍ ينقضّ إثرَ شهاب

متّ قبلى فلو سبقتُكِ عاهد ... تِ دموع الأسى على التسكاب

لا سلامٌ على الربيع إذا تا ... بَ ولم تصحبيه عند المتاب

ارجعى لى وقبّلينى ولا تخـ ... شَىْ رقيباً على الهوى لا يحابى

ارجعى ارجعى كما كنتِ قبلا ... أو خذينى بأقرب الأسباب

إننى لم أزرْ أجلْ بَعْدُ قبرى ... غير أنى منه على الأبواب

***

آهِ إن الحياة أعجزُ من أن ... تستطيعَ الرجوعَ بعد الذهاب

بين شعرٍ أقوله وأنينى ... شعبة من وشائج الانساب

ذهبت زهرتى التى كنتُ أشدو ... باسمها خالياً وبين صحابى

زهرةٌ قد سقيتُها بدموعى ... مزّقتها المنون بالأنياب

إننى كنتُ أعبد الحسن فيها ... ولقد كان وجهُها محرابى

خطفتها المنون منى كعاباً ... ما على الموت بعدها من عتاب

خطفتها منى ذئابُ المنايا ... وذئابُ المنون شرُّ الذئاب

قلت أسلو فأستريح ولكن ... كيف أسلو والحب ملء إهابى

كل شىء مذكّرٌ لى بليلَى ... ليتَ شعرى ماذا يذكّرها بى

هدّدتنى إذا تصديتُ عينى ... وفؤادى والنفس بالاضراب

***

وكأن الدنيا العريضةَ بحرٌ ... وكأنا عليه بعض الحباب

خضتُ بحرَ الهوى وكان خضمّاً ... ثم منه ركبت متنَ العباب

ثم صارعتُ الموجَ منه فما كنـ ... ـتُ سوى مغلوب الى غلّاب

عن يمينى وعن شمالىَ ماءٌ ... ثم إنى أعدو وراء السراب

بغداد ٤ تموز ... جميل صدقى الزهاوى

فصول ملخصة فى الفلسفة الالمانية

١٤ - تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فريدريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

على أن الروح « الديونيزوسى » يكاد يكون فاشياً فى كل أصقاع العالم القديم . وهو عند البرابرة كان يزجيهم إلى الانهماك فى السكرات ، وإشباع البهيمية الانسانية باللذائذ . واليونان برغم حضارتهم وبعدهم عن البربرية سرت إليهم العدوى ، ومشى فيهم هذا الروح . ولكن انهما كهم لم يكن انهما كا بهيمياً . أقاموا الأعياد والأندية حيث تنطلق الطبيعة ويذهل الانسان متحداً بباطنته مع الوجود . ومن هذا الانهماك تولدت المأساة اليونانية . والمأساة اليونانية يرجع أصل نشأتها إلى فريق « الساتير » وهؤلاء عند اليونان هم أرواح من الطبيعة تحيا ، ولا يتسرب إليها الفناء ؛ تعيش بعيدة عن الحضارة ، وظهورها فى شعب متحضر يقضى على حضارته ويقذف بالحواجز التى تفصل الانسان عن الطبيعة . وهم يظهرون أن الطبيعة ثابتة قوية خصبة برغم تقلب الأمم وتبدل الشعوب . واليونان اعتقدوا أن هذا الفريق مخلوق طبيعى مجرد من كل براعة ، ولكنه ليس بهيمى . يتجلى فيه شىء من السمو الالـٓهى ، وهو رمز الفروة الأكثر قوة وسيطرة على الانسان . هو سريع الهيام يفعله تقرب الالـٓه منه . كثير الاشفاق والعطف لأنه يقاسم « ديونيزوس » آلامه . وهو يسالم حكمة الطبيعة . وهو رمز خصب الحياة التى يعبدها اليونان عبادة دينية . كان هذا الفريق يبدو فى بدء نشأته وهو نشوان « بالسكر الالـٓهى » ورقصه ، وموسيقاه تنادر روح الناظر فى شبه ذهول عميق ، يمحو من نفسه ذكر الحضارة ، ويجرده عن ذاته حتى يرفعه إلى مرتبته ، ويشركه فى ذهوله وسكرته . حتى إذا وجبت القلوب واستسلمت النفوس يلوح وراء هذا الفريق خيال الالـٓه « ديونيزوس » وهذا السكر الالـٓهى قد ولد خيالا شعرياً لم يكن فى حقيقته إلا تعبيراً خاصاً عن حالة نفسية واضحة ولدها هذا السكر الصوفى . فالمأساة اليونانية هى بحقيقتها موسيقية شعرية . وهى هتاف ظفر الارادة التى تشعر بخلودها ازاء تقلب الكائنات وتحولها . بطل كل مأساة هو الالـٓه «ديونيزوس» ، وهى عاطفية لأنها نشأت لتكون أنشودة فى مدح الالـٓه . ثم تطورت المأساة لتكون أشد تأثيراً فى المخيلة ، فأصبحت صورة رمزية لسحابات يلوح بينها الخيال الالـٓهى الذى يظهر على السكارى الهائمين فى الوادى ، السكارى بالالـٓه . ولكن « ديونيزوس » لم يعد يظهر بشكله الالـٓهى . وإنما يظهر بهيئات الأبطال الذين يتمثل فيهم تحت قناع البطل « كيرومونى » أو « أوديب » . و «ديونيزوس» هو البطل الحقيقى فى كل مأساة ، يبدو بأشكال مختلفة . وهو فى ظهوره هذا يشبه الانسان فى حياته ، يتيه ويضل ، يناضل ويتألم . « ديونيزوس » هو هذا الالـٓه المتألم الذى تكلمت عنه الأساطير . هذا الالـٓه الذى يحس فى نفسه بآلام الفردية . هذا الالـٓه الذى قالوا عنه إنهم جزأوه وهو صغير وعبدوه باسم الالـٓه « زاكروس » ومن ابتسامته تولدت الآلهة ، ومن دموعه نشأ الرجال

إن روح هذا الالـٓه قد فتحت للعلم مجالاً عند اليونان . فهم بعد أن أطلقوا الأرواح من التشاؤم بتأملهم للجمال أو بشعورهم بخلود الارادة ، ذهبوا إلى طريقة ثالثة ، هى المعرفة العقلية للوجود وأجزائه . فجاء العلم حليفاً ثالثاً معهم يناضل التشاؤم . فبينما يقول الفنان للحياة « يليق بنا أن نحياك ، أيتها الحياة ! لأن صورتك جميلة » يقول العالم لها « أنا أريدك أيتها الحياة ! لأنك جديرة بأن تعرفى . . . » وهكذا وجد العالم فى اكتشافاته العلمية من اللذة والبهجة ما يجده الفنان فى أوهامه وأخيلته . وتآزرت هذه الأوهام كلها لتجعل وجه الحياة المشوه جميلاً . ويجب ألا نجحد أن فضيلة العلم إنما هى تتمثل فى البحث الدائم والتنقيب التواصل . لا فى الحقائق التى يكتشفها . أو النتائج التى ينيلها . وخطيئة العلم القطعى هى أنه لا يقف عند معرفته للوجود واقتناعه بما أدرك وتفهم من أحاجيه وإنما يثب إلى إصلاحه وإتمامه ، فتستمده حالته

الأولى مادام يبحث وينقب، ويشقى فى الحالة الثانية ما دام يطمح ويطمع إلى ما لا قبل له به . يعتقد ببساطة نفسه أن الوجود سهل فهمه بجملته وبأجزائه، وأن رأس كل فضيلة هى المعرفة، وأن الجهل هو مصدر كل بلاء، وبالعلم وحده يستطيع أن يبلغ الانسان ما يشاء من أمهات الفضائل

جاء سقراط وهو أعظم مفكر يونانى جاحد للوحى، يؤمن بأن العقل وحده يقوم مقام الغريزة والفطرة فى الحياة . والرجل العاقل له من عقله سلاح يدرأ عنه أخطاء الغريزة وضلال الفطرة . سلك سقراط طريقاً خالف به قومه واستطاع فى النهاية أن يقهر معاصريه بسمو منطقه، وباختياره لمصرعه الذى لقيه . ترك الحياة هادئ النفس، لا يمضه أسى ولا يقرعه ندم، كأنما كان يثبت بهذا المصرع إيمانه فى الحياة إيماناً متفائلاً لا يتضعضع ولا يتزعزع

هـذا هو عقل سقراط الذى هزم « المأساة عند اليونان » وحق لهذه المأساة أن تتلاشى أمام مجلس العقل، لما يطغى عليها من تعاليم لا يجمع بينها قياس ولا منطق . يستند كل ما فيها من تأثير على الموسيقى . المأساة لا توحى شيئاً ولا توضح عن أية حقيقة نافعة؛ وقد تجئ فاحشة المنزى، أو ليس يبدو بعد هذا أنها تعمل على تحطيم أجمل النماذج التى تخلقها الانسانيـة . فاذا كان هنالك أواصر متينة بين العلم والفضيلة والسعادة الحقيقية — كما يريد العلم المتفائل — فان المنزى الفاجع يغدو بدعة خطرة

ان سقراط لم يهدم فن المأساة وحده، بل هدم كل البراعة اليونانية . كان المثال الذى تجسد فيه العقل يوم كان اليونان يتبعون بأهوائهم شريعة الفطرة والغريزة . كانوا يريدون الحياة قوية جميلة، وهو يريدها منطقية، تفقه نفسها بنفسها؛ كان مظهر سقراط مظهر المزدرى لروح عصره، وهو وحده أعلن بين معاصريه أنه لا يدرى شيئاً، وأنه على حق فى خصامه معهم . يعرج على نوادى الشعراء والمفكرين والخطباء والمعلمين، فيقول : إن هؤلاء الواثقين بأنفسهم يفكرون ويجادلون بدافع الفطرة وحدها، وهم لا يفقهون ما يصنعون . تراه خيثما توجه وأينما انطلق لا يبصر إلا وهماً باطلاً، وخطأ فاشلاً، مما اضطره أن يعلن أنه مقدم على انشاء حضارة جديدة يديرها العقل وحده .

فيهدم الحضارة الأولى ولم يبق على شىء منها، فعل ذلك وهو لا يشعر بأن العالم الذى هدمه هو أسمى من العالم الذى راح يبنيه بعقله

* * *

هذا ملخص ما رآه نيتشه فى « المأساة اليونانية » وهو جد آسف على ذهاب ذلك الماضى النبيل . وقد لا يعنينا أن ننظر إلى مذهب « نيتشه » من حيث تعلقه بالتاريخ . فهو ليس فى الحقيقة إلا مذهباً يستخلصه من بعض نظراته المختلفة إلى أدب اليونان . وللعلم الحق وحده أن يتقبل هذه النظرات أو يأباها

يقول نيتشه عن شوبنهاور : « انا بعيد جداً عن الاعتقاد بأنى فهمت شوبنهاور، ولـكنى مؤمن جد الايمان بأن شوبنهاور قد أعانني على تفهم نفسى » وحال نيتشه فى درسه العبقرية اليونانية قد تشاكل هذه الحال، فهذه الدراسة قد كشفت عن تفكيره وأبانت عن منحاه فى الحياة . وهذه الارادة التى يذرع بها (ديونيزوس) مجابهاً أخطار الموت والشقاء والألم تعبر عن عاطفة عميقة من أسمى عواطف « نيتشه » ؛ ومهما كانت قيمة كتابه هذا فهو بعد هذا كله كتاب خالد يتلو علينا كيف شعر نيتشه بذاته حين درس براعة اليونان

(يتبع) خليل هنداوى

القصص

من أساطير الإغريق

بسيشيه وكيوبيـــد

أروع قصص الحب في التاريخ القديم

للأستاذ دريني خشبة

كان الليل الهادئ القمر أصفى من قلوب العـذارى ؛ وكان النسيم العليل الحلو يرف كالأماني في قلوب المحبين ؛ وكان البدر العاشق المُسَهَّد يُرسل القُبَلَ فتنطبع على خدود الورد ، وتلثم أعواد الزنبق ، ثم تنتشر بالشذى فتعطّر أحلام المدنفين !

وكان كيوبيـد الصغير يتميّز من الغيظ حين انطلق حاملا سهامه ليقتل پسيشيه ابنة الملك ، التي أهانت بجمالها كبرياء أمه ڤينوس !

كان الناس يعبدون ربة الجمال والحب حتى ترعرعت بسيشيه وتدفّق ماء الشباب في جسمها الريّان ، فهويت إليها نفوسهم ، وخفقت بحبها قلوبهم ، وآثروها بعبادتهم من دون ڤينوس !

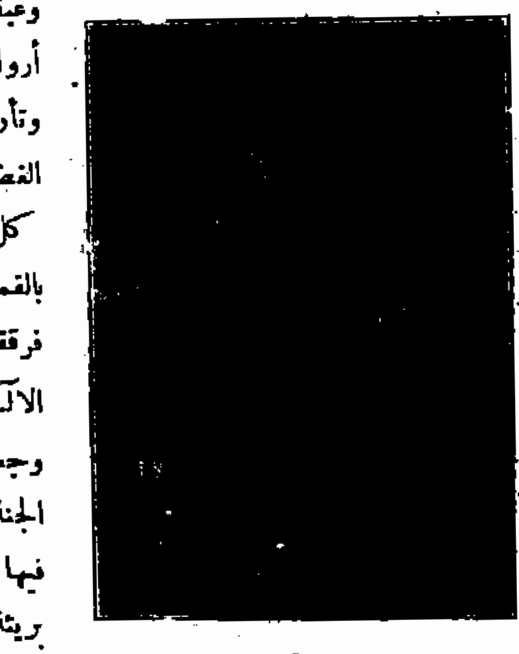
وكان للفتاة أختان حسناوان ، ذواتا دَلٍّ وفتون ، ولكنهما كانتا مع ذاك دونها قسامةً ووسامةً ولا نهائية !

أجل ، كانتا دونها لا نهائية ، فلقد كانت العيون تغرق من جمال بسيشيه في لُجّةٍ من الحسن الغامض ما لها من قرار ؛ وكان غموض حسنها هو سر عبادة الناس لها ، وافتتانهم بها ، وانصرافهم إليها عن كل ربات الجمال !

ودعت إليها ابنها ربّةُ الحب ، فأثارت في قلبه العداوة لهذه الغادة وجسّمت له ما يحيق به وبأمه من انصراف الناس عن عبادتهما إلى هذه المخلوقة النَّعِمة :

« أفيرضيك يا بني أن نكون من آلهة الأولمب نكرتين لا يخبت لها شعب من العباد المخلصين ؟ أم يرضيك أن يتغامز بي الآلهة كلما مررت بهم ، وهم كما تعلم مغيظون مني ، فيقولون هاهي ذي ڤينوس التي هدمت كبرياءها امرأة ، وصرفت الناس عن عبادتها غادة ؟ اذهب إذن فتربّص لها ، وأنفذ إلى أغوار قلبها سهماً يودي بها إلى هيدز ، وبئس القرار ! وإنه لا ضير على أن تهيم بها أرواح الموتى ، أو يفتتن بها پلوتو وملؤه . . . . . .

ومضى كيوبيـد إلى قصر الملك في طريق حُفّت بالورد وعبقت فيها أرواح البنفسج ، وتأرّج النرجس الغض ، واختلط كل أولئك بالقمراء الفضية فرققت من غيظ الإله الأصغر ، وجعلته يحس الجنة التي يخطر فيها ليقتل فتاةً بريئة ، كل ذنبها جمالها ، وأقصى ما ارتكبته من وزر أن بدت للناس فشغفوا بها ، وفنوا فيها ...



بسيشيه وكيوبيد

وكبر في قلب كيوبيد أن تنتهي هذه الجنة إلى جحيم تعج بالجريمة ؛ وتفيض بالآلام ؛ فجلس تحت سوسنة نامية يتأمل ، وكان ضوء القمر ينعكس على الأزهار ثم يرتد عنها شعراً وسحراً وموسيقى صامتة ؛ تنعزف ألحانها على أوتار قلبه الخفّاق !

وصدح بلبلٌ غَرِدٌ في هدأة الليل الفضي ؛ فانتفض الإله الأصغر وحمل قوسه وسهامه ومضى . . . لا يأبه بجمال الطبيعة

الساحرة ، ولا يأسر لبه هذا البهاء الإلهي الذي يغمر الكون حوله ، حتى كان عند أسوار القصر الملكي الراقدة في طوفان زاخر من أزهار الشيرِ والياسمين والبابونيا

ورفتين من جناحيه الصغيرين كان في حديقة القصر . . .

ها هو ذا يصعد على الدرج الرخامي ، متبخترا ، دون أن يلمحه الحرس . . .

وانفتل في غرفة بسيشيه النائمة ، واندس خلف الستائر الحريرية يوتّر القوس الذهبية ، وينتقي من كنانته سهماً تقطر المنية من سِنّيته ، ويرقص الموت على شباته !

وتقدم نحو الفتاة . . . . . .

يا للجمال النائم فوق الأريكة ! ويا للفتنة الناعمة ملء السرير !

لقد كانت متجردة كلها ! وكان نهدها البارز الشمر مجلّلاً بثديين ناضجين ، يتحلّبان لذاذةً ويلتهبان إغراءً ! !

ونامت هذه الذراع هنا ، واطمأنت تلك الذراع هناك ؛ لدْنتان وإن كانتا كالمرمر ؛ رخصتان وإن كانتا لتمثال معبود !!

وكان السحر يهمهم فوق الساقين الملفوفتين ، ويهوِّم من تحتهما ، كأنه يرقيهما من نفسه ، أو ينفث فيهما من روحه وبأسه ! . . . .

والرأس الصغير فوق الطنفسة الوردية ، مستسلماً لأحلام الشباب الحلوة ، متلألئاً في شعاعة من ضوء القمر سقطت عليه من النافذة القريبة ، رسولاً من لدن ديانا [1] البارة ، أقبل ليقول للإله الأصغر : « مكانك أيها الرامي الحبيب ! ماذا جنى عليك هذا الحسن فتسلمه للردى ، وتجرعه كأس المنون ؟ ! افتح له ما انغلق من قلبك تنعم به ، فانك لن تجد في ربات الأولمب من تخلص لك الحب كما يخلصه لك هذا الهدف البرىء . . . ! »

وخطا كيوبيد خطوتين ، وحملق في وجه بسيشيه ....

وبهره الجبين المشرق ، والهدب الناعس ، والخد الأسيل ....

وأخذ بلبه هذا الشعر السجدي تفضض حواشيه أضواء القمر فتزيده بهاءً ورونقاً ، فآلى لايهدرن هذا الجمال البارع ، وانثنى مسلوب اللب ، مشدوه القلب ، موزع الفكر ؛ وانتزع السهم فألقى به في كنانته . . . وقبل أن يخرج يده الصغيرة الناعمة ، شاء القدر أن يخدشها سهم ذهبي من سهام الحب ، فملأ كيوبيد هوى وأفعم قلبه صبابة ، فتقدم نحو بسيشيه لهفان ، يتزود لأوبته من جفنها النعسان وجمالها الفينان

وطبع على الفم الدقيق قبلةً دقيقةً حلوةً ، وعاد أدراجه عاشقاً وامقاً لايبالي بسخط أمه ڤينوس ! !

* * *

وانصدع عمود الليل ، وتنفس الصبح فهبّت الأرواح النائمة ، وأقبلت ڤينوس ربة الحب لتسمع إلى النادبات النائحات في قصر الملك ... ... بيد أنها ، بدلاً من ذلك ، رأت بسيشيه ، بسيشيه بعينها ، تمرح في حدائق القصر ، وقد برزت عرائس الماء من الغُدران الصافية تحييها وتغني لها ، وتصفر لها أفواف الزهر . . . ! !

وحنقت ربة الجمال والحب ، ونادت بالويل والثبور على ولدها كيوبيد ، وأقسمت لتجملن مباهج الحياة ووضاءتها ظلاماً في عيني الفتاة ! !

فسلطت عليها الأشباح تروعها وتفزعها ، وأغرت بها خفافيش سوداء جعلت تنوشها وتهاجمها ، وسخرت عليها ريح السموم تلفحها وتصهر روحها ، فانطلقت المسكينة مذعورة إلى داخل القصر ، وطفقت تصرخ وتعول ، ولا يدري أحد لماذا تصرخ ابنة الملك وتعول . . . وازدحم حولها أبواها وإخوتها والخدم والحشم ينظرون ويعجبون ولا يكادون يحيرون . . .

ومضوا بها إلى المعبد يستوحون الآلهة ، ولكنها ما كانت لتزداد إلا شكاةً وأشجاناً ! !

وكرت الأيام . . .

وانسربت بسيشيه إلى الجبل القريب المشرف على البحر ، وفي نفسها أن تلقي بحمل الحياة من شاهق ، فتستريح مما يطيف بها من آلام !

ورآها كيوبيد . . .

وظلت هي ترقب الموج المائج ، وتشهد اليم المصطخب ، وتلقي على البطاح نظرة مودع عجلان ، وعلى المروج الخضر تحية مأخوذ القلب أسوان ؛ ثم صرخت صرخةً هائلة ، وألقت بنفسها من عل . . . . . .

وكان كيوبيد كان قد أحس بما تعتزمه حبيبته من الانتحار ، فدعا إليه صديقه ونجيه زفيروس ، إله الريح الجنوبية ، وأطلعه على ما يكن من الحب : « لهذه الفتاة التي تكاد تُلقي بنفسها من

(١) ديانا هي ربة القمر ، وهي التي اكتشفت كيوبيد ، فأرسلت الشعاعة فوق وجه الفتاة لانقاذها

قُنة الجبل يا صديقى زفيروس . فان رأيت أن تكون لك علىّ هذه اليد ، أذكرها لك أبد الدهر ، فخذ أهبتك ، ولا تدعها تغوص فى اليم ، بل تلقها فى يديك الرفيقتين ، واذهب بها إلى الجزيرة المقابلة حيث الشاطىء المنضور بالرياحين ؛ فدعها ثمة ، فقد أعددت لها مُستراداً وملعباً . . . . . . »

ولشد ما دهشت بسيشيه إذْ رأت طيفاً نورانياً كريماً يبرز من الماء فجأةً فيلتقطها فى يديه الكريمتين ، ثم يترفق بها فيضعها على ظهره العريض الرحب ، كأنه أريكة من أرائك الجنة التى وُعِد المتقون ، ويخوض بها اليم المضطرب فتعنو له الأمواج ويسجد من تحته الثبج ، ويصير البحر فى لحظة كأنه مرآة صافية ملساء ، كأنها صفحة السماء . . .

ويصل إلى الشاطئ المزدهر فيبسم للفتاة ثم يحييها بتمتمة ، وينطلق فى البحر الذى يعود إلى سابق اصطخابه واضطرابه . . .

وتجلس بسيشيه على الكلأ فتفرك عينيها مما استولى عليها من ذهول ، لترى هل هذا الذى هى فيه حُلم ، أم هى قد ماتت فعلاً ولكنها دخلت الجنة ؟ ! !

بيد أنها تذكر أن الأرواح فقط هى التى تنفذ إلى دار الوتى ؛ وأنه ليس فى دار الموتى شمس ولا إياء ، وهى تتحسس نفسها فترى جسمها البض الجميل كما هو لم يتغير ، وهى ترى أيضاً إلى الشمس مشرقة تغمر بآرادها البر والبحر ، وتنشر إياءها فى الأكوان جميعاً . . .

إذن هى لم تمت ، وهذا الطيف الكريم الذى أنقذها من الموت ، والذى ترفق فحملها إلى تلك الجزيرة هو رسول أحد الآلهة ؛ وإذن فلتنهض ولتضرب فى هذا الفردوس المنزل حتى يكون أمر غير هذا الأمر . . .

ومضت فى غِياض وأرباض ، ورأت فى الأفق القريب قصراً باذخاً ذا شرفات وأجياد ، فيممت إليه ، وما كادت تدنو منه حتى فُتحت بوّابة السور الكبرى على مصراعيها ، وامتدت منها أذرع نورانية تصافحها ، وانبرت أصواتٌ رقيقة موسيقية تحتفى بها وتُحَيِّي وتُبَيِّي ! . . . . . .

وفركت بسيشيه عينيها كذلك !

وظنت أنها تحلم ، ولكن كل شىء حولها حدثها أنها ترى رؤية حقيقية ، لا رؤيا منامية . . . . فدخلت القصر ، وفى نفسها من الحَيْرة وشدة العجب ما أخذ يتضاعف فى كل خطوة ويزداد . . .

وحاولت أن ترى أحداً ممن لهم هذا الصوت الرقيق . . .

ولكن عبثاً . . . ليس هناك إلا أذرع من نور تمتد إليها محتفية بها ، تقودها إلى المخدع الوثير الذى أعدته العناية لها . . .

ودار الحديث بينها وبين طيف لا تراه :

ـ « . . . ويدهشنى أنكم تحتفون بى . وتبالغون فى إكرامى ، وأنا لا أرى منكم أحداً ، فهل كلكم يلبس قلنسوة هرمز ؟ [1] »

ـ « كلا أيتها العزيزة ؛ ولكننا أمرنا ألا نتكشف لك . . »

ـ « ومن ذا الذى أصدر إليكم هذا الأمر ؟ »

ـ « ونُهينا أيضاً عن ذكر اسمه . . . »

ـ « أنتم كرام ، ولكنكم تضايقوننى إلى حد الازعاج . . »

ـ « ليفرخ روعك أيتها العزيزة ، فى المساء ، تلقين الآمر الكريم صاحب هذا القصر ، وصاحب القصور الكثيرة فى أطراف الأرض »

ـ « وهل لى أن أجول جولةً فى قصركم المنيف عسى أن تذهب هذه الوحشة الجاثمة على قلبى . . . »

ـ « ولم لا . . . بسيشيه العزيزة ؟ »

ـ « بسيشيه ؟ ! . . . ومن أنبأكم اسمى ؟ »

ـ « رب هذا القصر أيتها العزيزة . . . »

وجالت الفتاة فى القصر الجميل المنسّق ، وكان مثار عجبها هذه الصور البارعة المرسومة على الجدران ، كلما وقفت عند واحدة دبت فيها الحياة ، وتحركت على الحائط متهللة مستبشرة ، مُحَيِّية بابتسامة خفيفة ، أو انحناءة مؤدبة . . . ! !

وكانت التماثيل فى زوايا الغرف ، وأوساط الردهات ، وفى حنايا الحديقة ، وفوق الربى المكسوة بالسندس الرطب ، تحتى الضَّيْفة ، كأن حياةً تدب فى مرمرها كلما وقع بصر بسيشيه عليها ، فتتحرك الأذرع ، وتومئ الرؤوس ، وتمر الفتاة وقد أخذ الدهش من نفسها كل مأخذ . . .

وكانت المنادل تهتف بها ترجوها أن تتلبَّث فتُسمعها أنشودة الخلد ، ولولا العجلة لوقفت بسيشيه عند كل حتى ينتهى من غنائه الحلو ، وتغريده الرنان

وعادت إلى المخدع مع مغيب الشمس

(لها بقيـــة) دريني خشبة

(١) قلنسوة هرمز (طاقية) الاخفاء

أقصوصة عراقية :

بداى الفايز

للأستاذ محمود . ا . السيد

— ١ —

كان اليوم العاشر من شهر مايو . . .

كان الفرات فائضاً توشك أمواهه الطاغية أن تجرف السدود القائمة على ضفتيه . وكان الفلاحون من أبناء القبائل المختلفة ، فى منطقة خضراء بين ذى الكفل والكوفة – كأمثالهم فى مناطق الفرات الأخرى – ساهرين عليها ، مقيمين حولها ليلاً ونهاراً وجيلين ، يخيفهم الخطر الجاثم حيالهم منذ شهر ، وقد اشتد بعد أن كان ضعيفاً مبهماً

وكان الصبح . . .

وكان النسيم يهب بليلاً فينعش هؤلاء المساكين ، ويحيى فيهم عنصر النشاط الذى كانوا فى أشد الحاجة إليه ؛ فقد أنهكهم النصب ، وآذاهم الجهد الذى بذلوا مذ طغى الماء ، وهم يصارعونه ليحولوا بينه وبين زرعهم – مع أنه جزء قليل من زرع الرؤساء المالكين – وماشيتهم ؛ وهما لهم قوام الحياة

وكانت سنابل القمح المنتشرة المتكاثفة فى الحقول على مقربة من بيوتهم – وهى من القصب البالى والحصر وجريد النخل – ومن النهر ، مصفرة ناضجة تبهج الناظرين . وكان وقت حصادها جد قريب

وحان الضحى ؛ فحانت ساعة العمل لتقوية السدود وتمكينها فانتشرت جموعهم كالنمل تحمل إلى المواقع الواهنة منها التراب من أطرافها ، ثم تعود لتحمل إليها التراب كذلك والحطب والقصب والحُصُرَ والمَسَدَ والحبال وما إليها ؛ ثم تعود مرة أخرى ، فأخرى ، يسوقها المهندسون والرؤساء المالكون فى غير مالين ولا إمهال

وحان الظهر ؛ فاستراحوا قليلاً ثم عادوا يعملون

وتغير الطقس ، آنئذ ، تغيراً مفاجئاً – ومثل هذا التغير مألوف ومعتاد فى العراق – فحجبت وجه الشمس عاصفة شديدة أثارت الموج فى النهر ، وعظم بها الخطر ، لأن السدود قد كانت احتملت من جريان المياه الطاغية وتيارها القوى أكثر مما تطيق احتماله ، فكيف بها الآن وقد أخذ الموج يلاطمها فيوهنها ويكاد يهدمها تهديماً

وكان الخطر أعظم ما يكون فى الضفة اليسرى من النهر ، لأن أهلها كانوا أقل عديداً من جيرانهم أهل الضفة اليمنى ، وأرضهم أوطأ من أرضهم ، وسدودهم أضعف من سدودهم

وكان الرؤساء جميعاً ، هنا وهناك ، مع وفرة غنائم ، وامتلاكهم الدور والأحراز والأرضين دون الفلاحين ، أحرص منهم على حفظ السدود لحفظ الزروع . فداروا حولهم يشجعونهم ويضربون القصَّر المتخلف منهم عن صحبه بالعصى والسياط

ونحن الآن فى الضفة اليمنى

حان الأصيل ، وبدأت قصتنا ؛ فوقف فتى طويل القامة ، مفتول الساعدين ، آدم اللون ، يدعونه « بَدّاى الفايز » ويتميز بخنجر مفضض لا يفارق حزامه ، أمام رئيس من رؤساء القبيلة التى ينتمى إليها ، معتدلاً يعلوه الشمم ، وتهز كيانه نخوة الأعراب ؛ وقد أصابته منه ضربة عصا كما أصابت غيره ضربات ، وسواء أكان لتلك الضربة سبب من تقصير فى العمل أم لم يكن ، فان (بداى) الذى كان شاذاً فى قبيلته فى بعض خلاله ، قوى الشكيمة ، عزيز النفس ، معتزاً بقوة جسمه ، لم يحتملها ؛ فوقف يغمغم متظلماً فى شبه ثورة وعصيان

وبهت الرئيس ، فنظر إليه مستغرباً مستنكراً : مستغرباً شممه ونخوته وقد حسبهما طيشاً ونزقاً وخنزوانة عبد ، وحمله خنجره المفضض حتى فى ساع العمل المسير ، مستنكراً تظلمه ، وكيف لم يحتمل منه ما احتمل الآخرون أذلة خاضعين

وأقبل عليه يريد أن يضربه مرة ثانية ؛ ثم انثنى عنه فى لحظة فأنشأ يرميه بما هو عند القبائل شر من ضرب العصى وأنكى ، قال يُعَيّره :

– « ويلك يا جبان ! هل يرفع أنفك فيميزك عن أخوتك الطائعين هؤلاء خنجرك المفضض هذا ! ؟ ولأى يوم كريهة تحمل هذا الخنجر وتلك البندقية التى تعلقها بالمدرة ؟ وأين كان هذا السلاح يوم قتل جَسّام أخاك عباس ؟ ولماذا لم تثأر له به حتى الآن أيها الجبان الذليل ؟ ! »

وإذ نطق باسم « جسام » شدّد « السين » تشديداً غريباً ومد « ألفه » وهو يشير بعصاه اشارة ذات معنى إلى ضفة النهر المقابلة ؛ ثم إذ أتم كلمته ابتسم ساخراً متهكما وتولى ، وهو مدرك أية طعنة نجلاء طعن الفتى

وسمع بداى هذه الكلمة الطاعنة أمام الجمهور الحاشــد من الفلاحين الذين كان يراهم دونه شمماً وإباء للضيم ونخوة ، وهو فى أسوأ حال من الاضطراب النفسى والغيظ ، وعضّ على شفته إذ أخذته (العزة) ؛ فصاح صيحة كاد ينفطر لها فؤاده :

ـ «اخسأ ! أنا أخو شمسة ! ولأنتقمنّ ولأدفننّ عنى عارى ! »

وترك العمل وهو حانق غضبان . وشعر بأن حياته أضحت عبئاً ثقيلاً عليه . و « النار ولا العار ! » وهل يهمه بعدُ الزرع وغير الزرع ؟ « لقد قتل جسام من أبناء القبيلة المجاورة أخاه عباساً ، فى نزاع على دين قديم ، منذ عهد قريب ؛ وتلكأ عن أداء ديّته . هذا ما كان يعلمه ؛ ولكنه لم يكن راضياً بالعار الذى خلع عليه هذا الحادث منه جلباباً أسود ضافياً . لم يكن ساكتاً عن حقه ، والثأر فى القبائل كالدية ، حقٌّ . على أنه لم ير بداً من التريث حتى تنجلى هذه المصيبة التى حلت بالقبائل الفراتية كافة : مصيبة الفيضان . فكان من المروءة تركه وشأنه ؛ أما وقد سبق السيف العذل ؛ فمُسيِّر أمام الناس ، فلا كانت الحياة إن لم يثأر وينتقم . . . . . »

هذا ما فكر فيه فى دقائق مسرعة كالثوانى ، ونفض عباءته ليزيل ما علق بها من تراب حين العمل ، ثم تناول بندقيته غير ملتفت وراءه ، وتوارى عن الأنظار

— ٢ —

ونحن الآن فى الضفة اليسرى

أقبل الليل ؛ وانقلب الفلاحون إلى بيوتهم ، وهم يتوقعون الخطر الجاثم حيالهم ، يتوقعون أن تتدفق المياه عليهم فى هــذه الليلة ان لم تنقص قليلاً ، وبقيت الريح العاصفة على شدتها تثير أمواجها فتوهن السدود . وكان الأعياء آخذاً منهم مأخذه فرقدوا متوكلين على الله ؛ الا الحرس منهم الذين أقاموا على السدود ، فكانوا متحفزين للعمل ، يروحون ويجيئون كأشباح الجن ؛ يلفهم نور القمر الضئيل الذى حجبت سطوعه الريح الذارية وما كانت تحمله للقوم من غبار كثيف

وكان جسام القاتل واحداً من هؤلاء الحرس

وكان وهو فى جماعته ، مطمئناً غافلاً ، لايدرى أن بداى قد أقسم لينتقمن لشرفه فى تلك الليلة ؛ لايدرى أنه جاء دارة القوم خلسة وقد عبر الفرات على زورق من زوارق الصيد صغير ، بعد لأى وجهــد كبير ؛ وأنه كان ـ وقد مضى الهزيع الأول من الليل ـ يكمن له وراء نخلة فى طرف حديقة مجاورة لبيوت القبيلة مما يلى مضرب الحرس ملثما بكوفيته ، متلفعاً بعباءته الســوداء ؛ مصمما على قتله

وكان موقع الحارس جسام قريباً من الحديقة ؛ وكان خصمه يتبينه ؛ وكان يعرفه مستدلاً عليه بصوته الذى كان يرتفع بين دقائق ودقائق إذ ينادى صحبه نداء الحذر والانتباه

وكان ينظر إليه وهو واقف فى الظلام ، ظلام الحديقة الذى كان يستره كالخنزير الحانق على الصياد ؛ ويقول بصوت خافت ؛ وكأنه يتوعده :

ـ « اصبر لى قليلاً يا ابن الكلب . . . . »

ثم حشا بندقيته ؛ وقد اشتدت ضربات قلبه ؛ وبدت على وجهه سيماء الانسان الوحشي القديم ؛ وثني ركبتيه وأطال النظر فى عدوه ليسدد الرمى ؛ وكاد يطلق رصاصاته الخمس التى أعدها لقتله ، لولا أن رأى بجانبه حارساً آخر أقبل عليه مسرعا . فكان على بداى لقتل واحد منهما أن يقتل الاثنين معا ، وهذا مالم يكن يريده ؛ لأن ثأره على تلك الصورة يخلق له مشكلة يصعب عليه التخلص منها ؛ فقد يغتفر له ذوو جسام وأبناء قبيلته قتله لأنه قاتل أخيه ، ولكنهم لا يغتفرون له قتل الثانى ؛ ولابد لهم من قتله بعدئذ ليثأروا به منه

وتملكته الحيرة فلم يدر ماذا يفعل

ثم بدا له أن يتوقع عودة القادم ، لينفرد بفريسته ، وبينما هو فى موقفه هــذا ، ارتفعت من جانب بعيد قيدَ غلوة صيحة حارس يستغيث

لقد حم الأمر ؛ وتفجرت الميــاه من ثلمة حدثت فى الســد المصاقب ، ومضى الحرس وفى طليعتهم جسام ، يعدون مستبقين لسد الثلمة ، فلم يتمكنوا من ذلك ، ولم يكن دفع المياه المتدفقة المتحدرة تحدر السيل من أعالى الجبال مستطاعاً

واستيقظ أبناء القبيلة فروّعهم الحادث ، وشعروا بوقوع الكارثة ، فأضاعوا رشدهم ، كما أضاعوا من قبل جهودهم كلها فى الزرع وفى إقامة السدود . وحاولوا كفاح المياه العرمة فحاولوا عبثاً ، وراموا مستحيلا

وما كانــ أمامهم إلاّ الهرب ، فكان النساء يولولن ، والأطفال فى خوف ورعب يتصارخون . وكان جسام ذا أسرة تتألف من زوج ، وثلاثة أطفال ، وأم عجوز ، وأخت . وكان الرجل آخر هارع إلى أمه وإلى أطفاله لينقذهم من الغرق ، وقد خسر مع الخاسرين نصيبه فى الزرع ، ونسى بقرته وغنمه ؛ وعلى

هذه البقرة والغنم تقوم حياتهم بعد الزرع . . .

وأدركت الرحمةُ الطبيعةَ حينئذ ، فسكنت الريح ، وانقشع الغبار ، فهذا القمر المنير زاهياً متلألئاً يطل على هذه الفاجعة فى قسوة وجمود

— ٣ —

وبعد ساعة أو أقل كانت الثلمة متسعة ، تنصبُّ منها فى السهل الكائن وراءها حيث البيوت ثم الحقول ، مئات الألوف من الأمتار المكعبة من الماء . وكان بداى يشهد هذه الفاجعة التى فُجعت بها القبيلة فى دهش وتألم . وكانت نفسه ساكنة هادئة بعد أن أفلتت فريسته منه ، وأحس شيئاً يتمزق فى جوفه . ثم استيقظ فى نفسه شعور غريب جديد ، هو غير الشعور بالضراوة والرغبة فى الانتقام والثأر ؛ وذهل عما جاء من أجله ؛ فاقترب من بيوت القوم قليلاً ، فرأى – مما رأى – أطفال جسام الثلاثة فى صراخهم وعويلهم ، والأب يحمل منهم الاثنين الكبيرين وكانا فى الرابعة والخامسة ، نحيفين واهنين من مرض أو جوع ، وزوجه تحمل بعض المتاع وتقتاد البقرة ، وأخته تريد أن تحمل أمها العجوز ، والطفل الثالث ، وهو فى الثالثة من العمر ما يزال على الأرض متشبثاً بأذيال أمه يرتجف ويعول باكياً ، والأم ذاهلة تحنى فتتناوله لتحمله فوق المتاع ، فيفلت منها زمام البقرة ؛ ثم يذكر الأب ، وهو دهش يحمل طفليه ، غنمه فيذهب إليها حيث كانت فى زريبة مجاورة ليسوقها أمامه . . . وأبناء القبيلة كل منهم مشغول ببلائه ، وقد اختلط الحابل بالنابل ؛ فكانوا فى مثل يوم الحشر الموعود

وكانت الكلاب تنبح شاعرة بالخطر نباحاً صاخباً يملأ الجو

وحينئذ كان بداى يحكم لثامه شداً ، ويتنكب بندقيته ، ويشمر عن ساعديه ؛ ويبادر لنجدة هذه الأسرة وعونها . وأقبل على الأم الذاهلة فتناول منها طفلها ليخفف عنها حملها الثقيل . وحسبه جسام ، وقد حانت منه التفاتة اليه فى الزحام ، واحداً من أبناء عمه ، فخاطبه مرشداً ومشجعاً :

– « دونك السد »

وكان السد الممتد على طول النهر والمؤدى إلى قرية قريبة ، الطريق الوحيد الذى لجأ اليه القوم طلباً للنجاة من الغرق لقربه من بيوتهم وارتفاعه عن السهل المنبسط الذى أخذ الماء يغمره شيئاً فشيئاً . . .

وإذ تخلصت زوج جسام من وليدها ، واطمأنت لنجاته ، استطاعت سحب البقرة وراءها واستنقاذ ما حملت على ظهرها من متاع البيت . وحملت أخته أمها العجوز . وبلغوا يخوضون الماء المتدفق خوضاً ، معه ، وهو حامل طفليه . واستمدوا ليمشوا وراء قافلة القبيلة التى رحلت من مستقرها وقد مسها ضرٌ أليم .

وأقبل أثرم الرجل اللثم حاملاً الطفل الصغير فأنزله إلى الأرض ، واقترب حتى قابل جساما فحل عنه لثامه ، ونظر اليه ، فى ضوء القمر ، محلقاً كأنه يقول له :

– « هلا عرفتنى ؟ فأنا خصيمك طالب ثأر عباس ؟ »

ولبثا دقيقة ينظر الواحد منهما إلى الآخر ، وقد أوشكت أن تثور فيهما نوازع الرغبة فى الاقتتال ، هذا ليدافع ، وهذا ليثأر وينتقم

وتحَّى جسام طفليه عنه فى تأن وحذر ، ومد يمناه إلى خنجره بيد أن بداى أخلف ظنه فما زاد على أن هز رأسه ، وقال له بصوت أجش :

« اذهب الآن ! . . مع السلامة . . خلصت . . ولكن لا تنس أن لك ساعة أخرى ! »

وانكفأ إلى زورقه مسرعاً ، تاركاً ثأره[1] وزوجه التى انتهت اليه آخر الأمر ، فى حيرة واستغراب

***

وآب بداى الفائز إلى قبيلته ساكناً هادئاً ، فخوراً بالفعلة التى لم يفعل مثلها أحد قبله ، إذ أنجد أسرة حين لم يكن له من إنجادها بد ، واستحيا لأجلها ، ولو إلى حين ، نفساً ما كان لها إلا أن تموت

— ٤ —

ومر عام على هذا الحادث . فعادت قبيلة جسام إلى أرضها الأولى ، بعد أن زال عنها الماء الذى غمرها أشهراً ؛ وأنشأت لها سداً جديداً على ساحلها ؛ فجاءها رسل من القبيلة الثانية يسعون بين بداى وجسام بالصلح ، ويحملون دية القتيل مالاً وامرأة ، وهى أخت القاتل ، فتزوجها بداى زواج « الفصل » على سنة القبائل الموروثة وتقاليدها

ولم يعد أحد يجرؤ ، بعد ذلك ، أن يعير الفتى بأنه نام عن ثأره نوم الجبان الذليل

(العراق — الأعظمية) محمود . أ . السيد

(١) ثأر الرجل : قاتل قريبه

البريد الأدبي

تبسيط اللغة الانكليزية واهتمام الانكليز بنشرها

يبدى الانكليز فى الوقت الحاضر اهتماماً خاصاً بنشر اللغة الانكليزية ، ويحاولون بمختلف الوسائل أن يجعلوا منها لغة دولية عامة ، كاللغة الفرنسية فى الشؤون والمعاملات الدولية والتجارية ؛ ويرجع هذا الاهتمام إلى ما بعد الحرب الكبرى إذ اتسع نطاق الامبراطورية البريطانية اتساعاً عظيما ، وضمت إليها شعوب وأمم جديدة ، وزاد نفوذ انكلترا الدولى تبعا لذلك ، واتسع نطاق تجارتها اتساعا عظيما . والانكليز أقل الأمم اهتماما بدرس اللغات الأجنبية ، وقد حاولوا أن يتلافوا هذا النقص بفرض لغتهم على الشعوب التى تنضوى تحت لوائهم ، ولكنهم يرغبون اليوم فى التقدم خطوة أخرى ، وذلك بالعمل لجعل اللغة الانكليزية لغة دولية اختيارية . وقد رأوا أن أنجع وسيلة لتحقيق هذه الغاية هو تبسيط اللغة الانكليزية إلى أبعد حد ، وانتهوا فعلا إلى عمل هذه التجربة ، فقام الأستاذ أجدن أحد أعضاء المعهد اللغوى بجامعة كامبردج باختيار الألفاظ الانكليزية التى تعبر عن أكبر عدد من المعانى المطلوبة ، وانتهى إلى حصرها فى ٨٥٠ كلمة تكون وحدها لغة انكليزية جامعة وافية بالتعبير عن كل ما يرغب ، ويكفى لدرسها وحفظها ثلاثون ساعة ، وليس فيها أى تضارب ولا تعقيد ، وليس فيها من الأفعال سوى ١٨ فعلاً ، وقد سميت هذه اللغة « بالانكليزية الأساسية » . ويعلق الانكليز على هذا التبسيط المدهش للغة تبلغ كلماتها عشرين ألفا آمالا كبيرة ، وتنوه الصحف العلمية بهذه المناسبة بأن أحب الكتاب الانكليز إلى الشعب الانكليزى هم أبسطهم لغة وبيانا مثل سويفت وبرنارد شو ، ومن ينحو نحوها فى التعبير الجزل البسيط الذى لا يتخلله حشو ولا ترادف ولا تعقيد

أزمة الديموقراطية

تشغل أزمة الديموقراطية أذهان الساسة والكتاب الأحرار ، وقد صدرت فى موضوعها فى الآونة الأخيرة مؤلفات عديدة ولا سيما مذ تولت عصبة الهتلريين الحكم فى ألمانيا وسحقت كل أنواع الحقوق والحريات العامة ؛ ومنذ أسابيع قلائل ظهر كتاب جديد فى الموضوع بقلم مسيو دى روفيرا الكاتب والسياسى الاسبانى عنوانه « تجربة سياسية Un Essai Politique » ومن رأى هذا الكاتب أن الديموقراطية تجتاز أزمة الموت ، بيد أنه من المستحيل أن يظفر المؤرخ أو السياسى المعاصر بجراثيم الداء التى تنخر أسس الديموقراطية ؛ وأكبر الظن أن مؤرخ القرن الثانى والعشرين أو الثالث والعشرين سيكون أقدر منا على تفهم الصلات والحوادث التى تربط الثورة الفرنسية بالحركات الثورية الجديدة مثل الشيوعية والفاشستية ، وأقدر منا على تفهم المراحل التى جازتها المبادئ الثورية السياسية حتى انتهت إلى نواحيها الاجتماعية ؛ وقد يرون أن تحول العالم القديم إلى العالم الجديد قد استهدف لسلسلة من النزعات والعوامل المضطربة . ثم يقول مسيو روفيرا : إننا نشعر الآن فى جميع أوربا بضرورة الارادة العاملة ؛ ولنا أن نسميها « سلطة » أو « طغيانا » فان المهم هو أننا نريد أن نعمل . ويجب علينا ألا نحكم على آبائنا بالبله والعجز لأنهم لم يبتوا فى المسائل بشىء . والواقع أنه يجب أن نعتبر خاتمة القرن التاسع عشر وفاتحة القرن العشرين مرحلة الهدم بالنسبة للعالم القديم ، ومرحلة التجارب الهائلة ؛ وليس ثمة ما يدهش إذ نرى ما نرى من ذلك الاضطراب الهائل الذى يسود شؤون العالم اليوم . وقد أثارت ملاحظات المسيو دى روفيرا كثيراً من الاهتمام والجدل لأنها تتعلق بمسألة تعتبر مسألة العصر ، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً

رسائل جديدة لشارلس دكنز

صدر فى لندن مجلد من رسائل جديدة لشارلس دكنز الكاتب الانكليزى الفكه ، محتوياً على جميع الرسائل التى كتبها دكنز لزوجته كاترين هوجارت من سنة ١٨٣٥ إلى سنة ١٨٦٧ وكانت مدام دكنز قد أوصت بهذه الرسائل لبناتها ، وأودعتها ابنتها الثانية كات بيروجيني بالمتحف البريطانى وأوصت بأن تبقى فى طى الكتمان بعيدة عن النشر والاذاعة حتى تموت هى ، والسير هنرى فلدنج دكنز آخر من بقى على قيد الحياة من نسل الكاتب الشهير . وقد عمل المتحف البريطانى بهذه الوصية ولم يسمح باذاعة الرسائل حتى تحقق شرط الانقراض . وليس فى هذه الرسائل جديد مما لم يعرف عن حياة دكنز ، ولكنها تلقى ضياء جديداً على ما كان بينه وبين زوجه من الخلاف وما كان بينهما من أسباب النفرة والاحتكاك مذ عرفها باسم كاترين هوجارت . والرسائل الجديدة على وجه العموم صورة حية من خواص دكنز ومواهبه الكتابية ، وهى تسبغ على الحوادث والمسائل التى تتناولها حياة جديدة لم تتوفر فى أية ترجمة من التراجم التى تناولت حياة الكاتب الكبير ، وفيها يبدو دكنز فى ذروة براعته المعروفة فى التصوير الفكه المبكى معاً . وقد تلقى الجمهور الانكليزى الرسائل الجديدة لهذا الكاتب المحبوب بلهفة واشتياق . والذين قرأوا من أبناء العربية شيئاً من قصص دكنز ولا سيما قصته الخالدة « دافيد كوبر فيلد » أو « نادى بكويك » أو « نيكولاس نيكلباى » أو غيرها يذكرون كيف يستطيع هذا الكاتب المبدع أن يصور حياة البؤس والتشريد فى صور بسيطة مبكية معاً ، وكيف يستطيع أن يهز أوتار القلوب بعرضه المؤثر وبيانه الخلاب

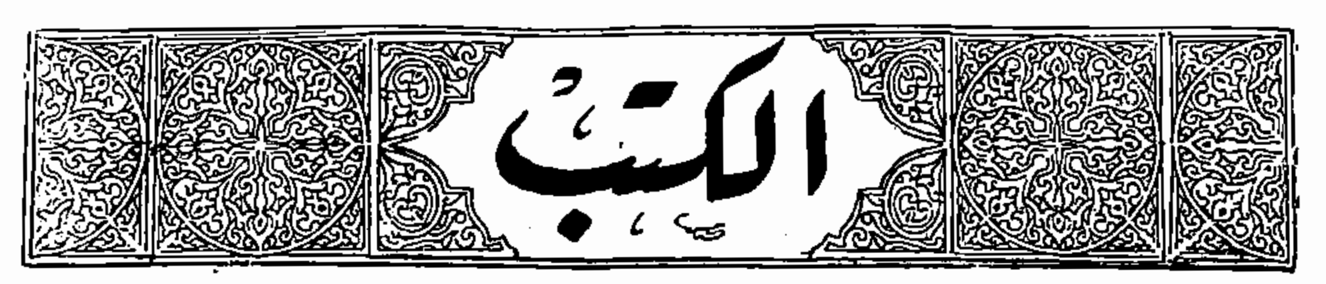
وليم كوبيت

تحتفل الدوائر الأدبيـة الانكليزية بذكرى كاتب مازالت كتاباته تطبع أذهان النشء الانكليزى بطابع قوى : ذلك هو وليم كوبيت الذى توفى منذ مائة عام . وقد ولد كوبيت سنة ١٧٦٢ فى فرنهام من أعمال سورى ، فى أسرة ريفية فقيرة ، وقضى حداثته فى فلاحة الأرض ، ثم تقلب فى مهن صغيرة مختلفة ، فاشتغل كاتباً وجندياً ، ولما ترك الجندية سافر إلى أمريكا وقضى بها ردحا من الزمن ثم عاد إلى انكلترا ؛ واشتغل أثناء ذلك بالصحافة آناً وبالزراعة آناً آخر ، ولقى فى حياته العملية صعاباً جمة نظراً لمناوأته رجال الحكم ؛ واستقر فى انكلترا منذ سنة ١٨٠٠ وأخذ يعالج الصحافة السياسية أولاً إلى جانب حزب الأحرار ، ثم إلى جانب المحافظين ؛ وكانت صرامته وعنفه وشدة حملاته تثير عليه السخط فى الجانبين ، ولكنه مع ذلك كان يبدى براعة ظاهرة فى حملاته ، وكان مرهوب القلم . وفى سنة ١٨١٧ سافر إلى أمريكا مرة أخرى ومكث بها عامين ثم عاد إلى انكلترا ؛ ورشح نفسه للانتخاب النيابى فسقط لأول مرة ، ثم عاود الكرة بعد ذلك ونجح فى الانتخاب كنائب عن أولد هام . بيد أنه لم يبد فى مجلس العموم مقدرة خطابية . ولم يلبث أن توفى بعد ثلاثة أعوام ، فى يونيه سنة ١٨٣٥

وقد كان كوبيت من أعظم النقدة فى عصره ، وكان كاتباً وصفياً لا يجارى ، وكان يملك زمام البيان بقوة مدهشة ؛ وكان أشد تأثيره فى شباب عصره ؛ وأشهر مؤلفاته « نزهات ريفية » و « نصيحة إلى الشبان والشابات » وهو من خير ما كتب وخير ما ظهر فى عصره ؛ ثم رسائله السياسية الأسبوعية وهى تملأ مجلدات كثيرة

الذكرى الثلاثون للامام محمد عبده

أقامت رابطة الشباب الأدبية فى الساعة السادسة من مساء الخميس الماضى بالدار الجديدة لجمعية الشبان المسلمين احتفالاً رائعاً بذكرى مرور ثلاثين عاماً على وفاة المصلح الكبير الامام محمد عبده ، شهده صفوة من رجال العلم وجمهرة من شباب الأمة ، وتكلم فيه الأستاذ عبد الوهاب النجار عن حياة الامام ، والأستاذ مصطفى عبد الرازق عن الامام فى الأزهر ، والدكتور محمد حسين هيكل عن الامام فى الصحافة ، والأستاذ عبد الله عفيفى عن دفاع الامام عن الاسلام ، والأستاذ الهلباوى بك عن الامام فى القضاء ؛ وكادت هذه الخطب الممتعة تؤلف للامام ترجمة وافية لولا أن ضيق الوقت أعجل الأستاذين النجار والهلباوى عن لم الموضوع واستيفاء البحث



١ — فتح العرب لمصر : للدكتور بتلر
ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد
٢ — فنون الطهي الحديث
لمؤلفيه السيدين أبي زيد أمين وطنيان سعيد

للأستاذ محمد بك كرد علي

من الكتب كتاب واحد يغني عن عشرة ، وقلما أغنى قط كتاب عن كتاب . وهذا الكتاب في فتح العرب مصر يدخل في باب ما لا يستغنى عنه من الكتب لفائدته وطرافته . صرف مؤلفه في وضعه وقتاً طويلاً يدرس ويبحث ، ثم يستقرئ ويستنتج ، فجاء كتابه ناجحاً من كل وجه ، حرياً بأن يتعلم بعض من يؤلفون بالعربية أصول التأليف النقحة بالنظر إلى هذا الكتاب وكيف يدرس الغربيون أبحاثهم ليفيدوا المسلم ويأتوا بالمتقن من صفحاته.

استعان المؤلف في تأليفه بشذرات قليلة مما كتبه الروم ومؤرخو الكنيسة القبطية ، وما كتبه أهم المؤرخين من العرب والانجليز والفرنسيين والألمان ، وما عثر عليه من أوراق البردي في أرجاء مصر ، وما كشف من عادياتها القديمة ، ورجع إلى عالم عصره الشيخ محمد عبده فأعطاه بعض قطع اختارها أو كتبها ، وكانت خاصة بالفتح ، وساعده غير واحد من أعلام مصر في قراءة جمل من القبطية وغيرها فجلا تاريخ هذه الحقبة بأجمل أسلوب عصري ، صور لك ما وقع من حوادث الفتح العربي كأنك تشهدها

قال : « ولعل القارئ يستطيع من مطالعة الملاحق التي ألحقناها في آخر الكتاب أن يتبين شيئاً من مقدار ما هنالك من خلط في التاريخ ، ومقدار ما عانيناه من المشقة في ابتداع طريقة لضبط تواريخ الفتح الفارسي والفتح العربي ، فالظاهر أن مؤرخي العرب لا يعرفون شيئاً عن تيودور القائد الأعلى لجيوش الروم ، فهم يخلطونه ببعض أصاغر القواد ، وهم كذلك يخلطون بين قيرس (المقوقس) وبنيامين ، وبين فتح قطر مصر وفتح مدينة مصر ، وفتح الاسكندرية ، ولا يميزون بين فتح الاسكندرية الأول الذي كان صلحا وبين فتحها الثاني الذي كان عنوة ، وكانوا يذهبون إلى أن القبط قد ساعدوا العرب ورحبوا بهم . وقد ظلم التاريخ القبط في ذلك ظلماً فاحشاً على نحو ما ظلم العرب ظلماً كثيراً بنسبة حريق خزانة كتب الاسكندرية إليهم » قال : وما كان لنا إلا قصد واحد وهو أن نصل إلى الحق ، وقال إنه ممن يحمل لكل من الشعبين العربي والقبطي أكبر الاعجاب

ومن براهينه في تبرئة العرب من حريق خزانة الاسكندرية أن هذه القصة لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة وقد لخص هذه الحكاية وحللها (شأن عشرات من علماء المشرقيات) فألفاها كما رأوها سخافات مستبعدة ينكرها العقل ، وقال إن الرجل الذي ذكر أنه كان أكبر عامل فيها مات قبل غزو العرب بزمن طويل ، وإن القصة قد تشير إلى واحدة من خزانتين : الأولى خزانة المتحف ، وقد حرقت في حريق قيصر ، وإذا لم تتلف كلها كان ضياعها فيما بعد في وقت لا يقل عن أربعمائة عام قبل فتح العرب . وأما الثانية وهي خزانة السرابيوم اما أن تكون تلفت قبل عام ٣٩١ ، وإما أن تكون قد ضاعت ، وعلى كل فقد ضاعت أخبارها قبل فتح العرب بقرنين ونصف قرن ، ولو كانت هذه الخزانة باقية عند ما عقد قيرس صلحه مع العرب على تسليم الاسكندرية لنقلت الكتب ، وقد أبيح ذلك في شروط الصلح الذي يسمح بنقل المتاع والأموال في مدة الهدنة وقدرها أحد عشر شهراً ، وإن كتاب القرنين الخامس والسادس لا يذكرون شيئاً عن وجود الخزانة ، وكذلك كتاب أوائل القرن السابع ، وإنه لو صح أن هذه الخزانة قد نقلت أو لو كان العرب قد أتلفوها حقيقة لما أغفل ذلك كاتب من أهل العلم وهو يوحنا النقيوسي ، وكان قريب العهد من الفتح ، ولما مرّ على ذلك بغير أن يكتب حرفاً الخ

وقال المؤلف في الحاشية إنه لم يقصد سوى اثبات الحقيقة ،

وما قصده الدفاع عن العرب ، وليس الدفاع بضروري ، ولو كان ضرورياً لما تعذّر أن نجد شيئاً يليق الاعتذار به عن ذلك ، ولاشك أن العرب عُنوا فيما بعد بجمع كثير من الكتب القديمة وغيرها مما وقع في أيديهم ، وعنوا بحفظها ، وترجموا منها في كثير من الأحوال . قال : وفي الحق أنهم أقاموا مثلا يجدر بفاتحي هذه الأيام أن يحذوا حذوه ، فقد نقل سيديليو في تاريخ العرب العام أن الفرنسيين عند ما فتحوا مدينة قسنطينة في شمال أفريقية أحرقوا كل الكتب والمخطوطات التي وقعت في أيديهم « كأنهم من صميم الهمج » ؛ ووجد الانجليز عند فتح مدينة مجدلة خزانة كبرى من الكتب الحبشية فحملوها معهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن تركوا أكثرها في كنيسة على جانب الطريق إذ وجدوا في حملها عناءً . وقيمة الكتب التي نجت وحفظت تدل على فداحة الخسارة التي لحقت العلم بضياع ما ترك منها اهـ

بهذا الانصاف ، وهذه العناية ، وهذا الجهد ، ألف المؤرخ الانجليزي تاريخ الفتح العربي في مصر ، فرسم صورة جميلة ، وكان اعجابه بعمرو بن العاص لايقل عن اعجابنا معاشر العرب به وبأمثاله من الصحابة الفاتحين . وعناية المترجم الفاضل شديدة بتجويد ترجمته على صعوبتها لما حوت من النقول العربية وغيرها من اللغات ليرد الوثائق إلى أصلها ؛ وقد وقع له تحريف في بعض الأعلام ، ومنها ترجمته اذاسا(Edesse) ، وهي الرُّها وأطلق عليها الترك « أورفه » ؛ ومنها « افيسوس » وهي « إفسس » مدينة في آسيا الصغرى أطلالها قرب أزمير اليوم ؛ ومنها «برجاموس» وهي « فرغاموس » ، وفي قاموس الجغرافيــة القديمة للعلامة أحمد زكي باشا أن فرغامس هو الاسم الوارد في كتب العرب للدلالة على مملكة قديمة بآسيا الصغرى اسمها عنـــد الأفرنج (Pergame) ، ومنه اشتقوا الكلمة التي يطلقونها على الرق (بفتح الراء) أي الجلود المستعملة للكتابة ، لأنها أول ما صنعت بهذه المملكة ، فيقول الطليانيون (Pergamina) والفرنساويون (Parchemin) الخ . وقال مدينة « بيرويه » وهي مدينة حلب ذاتها . هذا إلى هنات قليلة لا يكاد يخلو منها كتاب منقول إلى لغتنا من لغة أعجمية . أما الترجمة في مجموعها فيستحق عليها المترجم كل ثناء وشكر

— ٢ —

أحسن مؤلفا فن الطهي الحديث على الطراز العربي والغربي وضعه . ألفاه بعــد أن عانيا صناعة الطبخ بالعمل في مصر وبلاد الغرب سنين طويلة وعملا في قصور الملوك والأمراء وفنادق النبلاء والملاء ، فجاء الكتاب نافعاً في بابه لا تستغني عنه ربة دار ، ولا طاهٍ يروقه أن يزين خُوانه بشهيّ الألوان ، ويتفنن في تلذيذ الآكلين بطعام صحيّ منوّع . جاء الكتاب في ١١٧٠ صفحة كبيرة وصفت فيه الأطعمة والحلويات والتبلات مشفوعة بالمقادير الواجب استعمالها وبصورة وضعها وصنعها بحيث لا يكاد يحتاج من يريد الاقتباس منها إلا إلى قليل من الدقة والعناية حتى يتفنن في طبخ الطعام ويجهز ألواناً رائعة شائقة شكلاً وطعماً . وكنا نتمنى لو دفع المؤلفان كتابهما إلى من يصقل عباراته ويترجم أسماء بعض الألوان الأفرنجية بألفاظ عربية تدني مفهومها من ذهن من لا يحسن لغة من اللغات الأجنبية من أبناء العرب

وقديماً ألف أجدادنا في هذا الموضوع بما دل على رسوخهم في الرفاهية ، وقرأنا في الكتب أن الخليفة الفلاني أو الملك الفلاني كان يقدم على مائدته عشرات بل مئات من ألوان الطعام . والتفنن في الطبخ دليل الحضارة ، ولطالما كان بعض الأمراء يرسلون إلى الأقطار البعيدة بعض طهاتهم ليأخذوا عنها صنع أطعمة لا يعرفونها ، والمطابخ الافرنجية اليوم أرقى من المطابخ الشرقية ؛ لأن طعامها يطهى على أساليب كيماوية صحية لا نزاع في خفتها وطرافتها . وحضارة الغرب أرقى الآن من حضارة الشرق ، اللهم إلا في مسائل يتفرد بها الشرقيون

فليس البحث في الأكل الجيــد إذاً بالذي يعد انحطاطاً ، ونحن لو أنعمنا النظر لا نفسر هذا الجدال القائم بين البشر اليوم وقبل اليوم وبعد اليوم إلا على الرفاهية ، وما فلسفة الأمم إلا فلسفة خبز في الواقع . ودعوى خدمة المدنية والانسانية صورة مبهرجة يراد بها غير ما تعطي ظواهرها . والأمة التي يكثر خبزها وتتلون أطعمة المتوسطين والموسرين فيها هي أمة راقية سعيدة ، والعرب الذين عهدنا لهم تلك الخشونة في المطعم لما فتحوا الممالك وخرجوا من جزيرتهم أغرقوا في التنطع والتنوق في إغراق غيرهم من الأمم

محمد كرد علي